

محمد صلاح راجح

رواية

هَبْ يَكّ

هب يك

محمد صلاح راجح

راجح ، محمد صلاح.

هب يك، رواية / محمد صلاح راجح – ط ١.- الجيزة اطلس للنشر والانتاج الاعلامى، ٢٠١٣

٢٨٨ ص ،٢٠ سم

تدمك: ٩ ٢٨٥ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

- العنوان

٨١٣

هب يك

محمد صلاح راجح

أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٣/٢٢٣٩٨

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٢٩٩-٢٨٥-٩

الطبعة الاولى

الكتاب هب يك

المؤلف محمد صلاح راجح

الغلاف طارق فوزى

الناشر: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

atlas@innovations-co.com

www.atlas-publishing.com

تليفون ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٢٧٩٦٥ ٣٣

فاكس: ٢٨٣٢٨ ٣٣

****

إهداء

إلى العارف.. محمد عارف

صديقي العتيد الذي يحمل قلبًا من ذهب..

والذي أهداني قلمًا وكتابًا فكانت رسالته بليغة جدًّا..

أنا النار وأنا الهشيم.. وان بعضي ليأكل بعضي..

محمد سامي

(١)

أغمضتُ عيني.. ألتقط أنفاسي بعمق، وهي تصرخ وتتأوّه من لذة الألم.. ومن النشوة، وأفتح عيناي محدقًا بشراسة، الآن أهرسها.. آكلها.. أحفرها بعمق.. أشطرها نصفين.. صرخاتها تدوي ولكنها لا تضاهي ضجيج أفكاري.. للمرة الأولى أفعلها.. بعنف أفعلها.. ملقيًا ما فات من حياتي، فقد تغير كل شيء.. كل شيء.. وإلى الأبد.

تحركت بجذعها من تحتي لتتعلق برقبتي، تخدش ظهري وتصرخ:

- يخرب بيتك.. آااااااااه.. قبلك ما عرفتش رجالة.

تلعقني وتطلب المزيد.. تجذبني فوقها ولا زال انتصابي الشيطاني يخترقها، يدخلها جنة إبليس الأرضية.. التف وركيها حول خصري لترغمني على تدفق ملتهب بداخلها.. أبعدها بعنف، فتضم سر ذكورتي بين نهديها لينفجر بركاني.. تعالت تأوهاتها في نشوة حالمة، ارتمت على الفراش تدلك نهديها بمائي.. جذبتها من شعرها لأثقبها بعيني:

- نِمتي مع كام راجل قبلي؟

كيف ترتبط مجلات الكوميكس وكتيبات فلاش بذكرى الحرب والدم والدمار؟! كنت في ساعات الصباح الباكر من يوم الجمعة، أعشق السهر خاصة في يوم الخميس لأنني لا أحمل هم الذهاب إلى مدرستي غدًا.. أجلس على الأرجوحة وسط حديقة بيتنا الصغيرة والتي كانت أمي ترعاها بنفسها، فصنعت منها جنتي وعالمي.. بجواري الأعداد الجديدة من مجلات ميكي ماوس، وثور مان، وسلاحف النينجا، وآخر عدد من فلاش والذي يرسلهم صديق لأبي بانتظام من مصر، تأتي أمي لتضع أمامي صحفة عليها كوب اللبن الأبدي وبعض الشطائر.. وأتذكر بيتنا الصغير ذا الطابق الواحد والذي يقبع كالطفل في نهاية حديقتنا.. أتأمل السور فقط لأتأكد أنني هنا ووحدي في عالمي الخاص.. أتذكر هذا الخليط الساحر من مذاق الحليب الدافئ بشطائر الجبن القديم والرومي يمتزج بالقراءة والولوج لهذا العالم السحري.. لهفتي وأمنيتي لدخول عالم أبطالي بين دفتي مجلاتي وكتيباتي.. تداعب أمي شعري في حنان وتهرع لتلحق بأبي في غرفتهما.. لحظات ويتناهى إلى مسمعي صوت ضحكاتها.. همسات لا أتبينها.. تأوهات.. لا أعرف لماذا كانت تمثل لي إشارة البدء في لقاءاتي بأبطالي وأكون متأكدًا من خلوتي بهم، أدخل العالم الساحر وأتوقف لفترات متسائلا عن إمكانية إيجاد طريقة لمقابلة

علام أو ميدو أو عم دهب أو ليوناردو ورفاقه ومعلمهم رشدان.. أعود من جديد وأقهقه على مغامرات البحَّار الغبي وكابتن غريق.. هذه اللحظات كانت حلمًا دائمًا طوال الأسبوع وأنتظرها بلهفة.. كان أبي مُصِرًّا على عدم الاختلاط بمن هم في مثل سني لأن:

- الغربة بتخلي الناس تاكل في بعض.. وأول ناس تبيعك وتتمنالك الشر.هما المصريين اللي زيك.

يتراخى رأسي إلى الوراء وأغيب في غفوات قليلة.. توقظني قطرات عرق بارد انسابت على قفاي.. وأفكر.. هل يعيش أبطالي هناك في مصر هل يمكنني مقابلتهم لو ذهبت إلى هناك؟ أغفو من جديد وأثق أني سأصحو في فراشي لأجد مجلاتي مرتبة بعناية على الكومود بجواري وأرى ابتسامة أمي الحنون ووجهها المشرب بالحمرة من جراء ليلة أمس:

- صباح الخير يا عيون ماما.. بعد كده مش هأعرف أشيلك أوديك سريرك.. كبرت يا حبيبي.

لا أرد.. فقط أرمي بنفسي وثمانية أعوام هي عمري في حضنها وأقبلها، لكنني هذه المرة لم أكن أعلم أن الجحيم نفسه سيوقظني.

راتا تا تاااا.. بـوم.. الصراخ.. العـويل.. بـوووووووووم.. الدماء.. على كتـف أبي ويفـر بي جـاريًا.. يتعثر.. يتلـوى.. يبكي.. يصرخ.. ينشج.. يدي الصغيرة تعتصر المجلات.. وجه أبي الملطخ بالدم.. صيحات هلع.. الجحيم.. النيران.. اللهيب.. الشظايا.. الهدم.. السحق.. الغبار.. كان لنا بيت هنا.. كانت لنا حياة.. راتا تا تا تاااا.. بوووووووم.. اللهيب.. وجه بطوط تلوث بالدماء.. راتا تا تا تاااا.. بوووووووم.. صراخ وعويل يسحقان أذناي الصغيرتين.

راتا تا تا تاااا.. بوووووم.. الغبار واللهب يغمران كل شيء.. كل شيء.. قذيفة أخرى من دانة مدفع الدبابة.. بوووووووووووم: ماكو مقاومة.. ماكو مقاومة.

ولا زال أبي يفر بي جريًا.. يصرخ ويبكي: أمك جوه يا رامي.. أمك جوه.

وأدرت عنقي لأرى هـذا الجحيم.. وهنـا فقـط.. صرخـت.. صرخـت.. صرخت.. ثم انفجرت بالبكاء.

لهيب الشمس يأكل جسدي.. انحشر تحت إبط أبي الذي انحشر بدوره وسط الفارين على ظهر الناقلة.. أوراق مجلاتي تحولت إلى شيء شبيه بأوراق الكرنب.. الدماء على وجه بطوط جفت وكذا دمـوع أبي.. جفت إلى الأبد،

فقد استنزف مشاعره مختلطة بدموعه وقد رسم الهم والحزن علاماتهما السرمدية على وجهه، الصمت يخيم.. صوت الصحراء ولهيب الشمس لا يقطعه سوى ضجيج الصراع على قرب الماء التي ظهرت ملقيًا إياها السائق وهو يواصل طريقه.. بالكاد يخطف أبي بقايا واحدة ويسقيني قطرات.. أبي يظلل وجهي بقميص بيچامته المهترئ.. كانت جديدة منذ أيام وكان سعيدًا بها.. هدية أمي، فجأة أصبحت مدركًا للموت وما يعنيه.. لكني لم أفهم بعد أن أتبع كلامي عن أمي برحمها الله.. كيف يتحول هذا الكيان المفعم بالحب والحنان والعطاء إلى هباء.. كيف وقد علمت أنه ليس من حقي ولا باستطاعتي أن أنظر إلى جثتها حتى، وقتها لم أكن أعي مشاعري ولا ما يصطرع بداخلي.. كيف يشعر من لا يستطيع أن يبوح بما داخله ولا أن يعبر عنه.. هذا شعور لا قبل بهذا الطفل الذي كنته به.. العجز وعدم الفهم وانعدام القدرة أمام هذا الهول الذي دك حصوني فلم أعد آمن ولم أعد قادرًا على قبوله كواقع جاءنا من أعماق الجحيم ذاته.. وغبت في سُبات لا يطاق ممسكًا بقميص أبي لأزيده اهتراء.. نمت فرارًا من جحيم اليقظة.

ساعات الفجر الأولى وأبي يوقظني برفق.. البرد يقتلني.. يهشِّم عظامي.. إن أنفي يسيل.. يسيل.. فتح أبي قميص بيچامته التي فر وهو يرتديها في

إشارة لأن أتكوم بداخله، ما بين قماش قميصه وضلوعه سكنتُ باحثًا عن دفء أعلم أنه لن يأتي، ولمحت المكان الذي توقفت فيه الشاحنة بطرف عيني للحظات.. نقطة حدود.. علم المملكة السعودية يرفرف.. واختفى الكون إلا من أشواك شعر صدر أبي ورائحته الزكية التي عشقتها.. هنا كنت أختبئ من أمي عندما أهشم الطبق الذي كنت أحمله، أو عندما كانت تكتشف أنني دسست كتيب فلاش بين صفحات الكتاب المدرسي متظاهرًا بالمذاكرة، كانت تلاحظ أني لا أقلب الصفحة لمدة تتجاوز الساعة فتدرك أن في الأمر خدعة ما، فأفر إلى داخل قميص أبي الذي يقهقه ضاحكًا وهو يخفيني فتتظاهر أمي بأنها لا تراني وتوحي بخطوات زائفة أنها ابتعدت.. أبرز رأسي الصغير لأتأكد فأجدها أمامي لتلتقطني بيدها وسط صرخاتي الضاحكة وهي تقهقه بدورها.. ليرحمك الله يا أمي.. فرت دموعي من جديد فدفنت وجهي في جسد أبي الذي شعر ببلل صدره فضغطني إليه وكأنما يريد أن يخفيني بداخله فأغمضت عيني.. وغبت من جديد.. هذه المرة في صدره.

انهالت أكوام الغبار معلنة احتجاجها على كل هذه السنوات من الفرقة، أصدر الباب صريرًا مدويًّا وأخذ يرتج منذرًا بانهياره ومهددًا بمفارقته إطاره

في أي وقت.. ارتفعت أكوام الغبار لتشوه الرؤية.. رويدًا رويدًا تنزاح تاركة سعال وبصاق أبي واختناقي.. ورؤية أنقى، قطع الأثاث القليلة المغطاة بالملاءات البيضاء الأبدية والتي لم تعد كذلك وتهرع في تصميم إلى السواد مثل الضمائر، ربما كانت هذه الأولى في حالة أفضل، بضع خطوات من أقدام أبي تطأ أرض شقتنا القديمة، كان أول ما شاهدته في أرض مصر هو مانشتات الجرائد التي تتحدث عن الغزو.. الوجوم على وجوه من أتوا معنا والشفقة في عيون من استقبلونا، وأبي منذ تلوث وجه بطوط بدمائه لم ينطق إلا ببعض كلمات فاترة.. كانت خطواته بمثابة إعادة استكشاف لوطنه.. لهمومه التي كونت عوامل طرد ساحقة كانت مجرد تمهيد لعوامل جذب بلغت من الشناعة مبلغًا تتسابق الصحف في زخرفة عنونته على الصفحة الأولى.. الابتسامة الخبيثة على وجه العم سام تحولت إلى قهقهة مجلجلة.. وساخرة، نظراته – أبي – تحولت إلى نظرات سجين عادوا به سحلًا إلى زنزانته القديمة.. التفت إليّ فتقدمتُ نحوه.. خَرّ على ركبته ليصبح في مثل قامتي.. بدت جلسته هذه ولا مبالاته بأكوام التراب تحت ركبتيه خضوعًا تحت أقدام هزيمته:

- العيشة في مصر يا رامي يا بني زي الشقة دي بالظبط.. كل حاجة متربة.. كل حاجة تقرف، وإنت أمك راحت في الحرب وسابتلي حمل كبير أوي.. إحنا رجعنا غصب عننا وخلاص ما لناش إلا بعض.. إياك تسمع كلام حد غيري.. فاهم يا رامي.. لا تسمع كلام الغريب ولا تشوفه من أصله.

وقتها لم أفهم.. زاغت نظراتي في ملامحه فلمحتها زائغة بدورها، احتضنني بقوة فكانت رأسي تعرف طريقها لتُدفَن في صدره:

- بكره لما تكبر هتفهم كلامي.

لففت يدي حول عنقه بقوة فازدادت أوراق مجلاتي تجعدًا بين يدي، فلم أكن أريد أن أتخلى عما تبقى مني.. أبي ومجلاتي.

بوووووووووم: ماكو مقاومة.. ماكو مقاومة.

أمك جوه يا رامي.. أمك جوه.

راتا تا تا تاا.. بوم.. الصراخ.. العويل.. بوووووووووم.. الدماء.

وجه بطوط تلوث بالدماء.. راتا تا تا تاا.. بوووووووم.

أغسطس ١٩٩٠:

الكويت.. استيقظ العالم فجأة على جنون صدام حسين، ابتسامة خبيثة على ثغر العم سام، ذهول على وجوه العرب وتخبُّط في مطابخ حكامهم السياسية، لقد جن الرجل تمامًا مدفوعًا بتراث من الصراعات منذ عهد الدولة العثمانية التي كانت قد ضمت الكويت إلى أراضيها، جاء أول ترسيم للحدود بين الكويت والدولة العثمانية عام ١٩١٣ بموجب المعاهدة (الأنجلو - عثمانية) والتي تضمنت اعتراف العثمانيين باستقلال الكويت وترسيم الحدود.. وقد نصت المادة السابعة من المعاهدة على أن يبدأ خط إشارات الحدود من مدخل خور الزبير في الشمال، ويمر مباشرة إلى جنوب أم قصر وصفوان، وجبل سنام حتى وادي الباطن، وأن تكون تبعية جزر بوبيان ووربة وفيلكا وقاروه ومسكان للكويت، وبينت المادة السادسة أن تبعية القبائل الداخلة ضمن هذه الحدود ترجع للكويت، بعد الحرب العالمية الأولى انتهت الدولة العثمانية وأصبحت أراضي العراق خاضعة للانتداب البريطاني حتى عام ١٩٣٢ حينما منحت المملكة المتحدة العراق استقلاله.. في يونيو١٩٦١استقلت الكويت عن بريطانيا وبعد أسبوع واحد من إعلان

استقلال الكويت عقد عبد الكريم قاسم[1] مؤتمرًا صحفيًّا في بغداد يطالب فيه بالكويت ومهددًا باستخدام القوة، لتندلع بذلك أزمة سياسية بين الكويت والعراق عرفت بأزمة عبد الكريم قاسم.. وقد حاولت القيادة العراقية إضافة لمسات قومية لهذا الصراع فقامت بطرح فكرة أن الكويت كانت جزءًا من العراق وتم اقتطاع هذا الجزء من قبل الإمبريالية الغربية حسب تعبيرها وتم أيضًا استغلال تزامن هذا الصراع مع أحداث انتفاضة فلسطين الأولى.

خلال الحرب العراقية – الإيرانية (١٩٨٠ – ١٩٨٨) دعمت الكويت والسعودية العراق اقتصاديًّا ووصل حجم المساعدات الكويتية للعراق أثناء الحرب إلى ما يقارب ١٤ مليار دولار، كان العراق يأمل بدفع هذه الديون عن طريق رفع أسعار النفط بواسطة تقليل نسبة إنتاج منظمة أوبك[2] للنفط.. واتهم العراق كل من الكويت والإمارات العربية المتحدة برفع نسبة إنتاجها من النفط بدلا من خفضه وذلك للتعويض عن الخسائر الناتجة من انخفاض أسعار النفط، وصرح الرئيس العراقي صدام حسين أن

١- أول رئيس وزراء للعراق.

٢- Organization of the Petroleum Exporting Countries = منظمة الدول المصدرة للبترول، هي منظمة عالمية تضم اثنتا عشرة دولة تعتمد علي صادراتها النفطية اعتمادًا كبيرا لتحقيق مدخولها.

الحرب العراقية الإيرانية التي استمرت ٨ سنوات كانت بمثابة دفاع عن البوابة الشرقية للوطن العربي حسب تعبيره، وأن على الكويت والسعودية التفاوض على الديون أو إلغاء جميع ديونها على العراق.

في ٢ أغسطس ١٩٩٠ شن الجيش العراقي هجومًا على الكويت، استمرت العملية العسكرية يومين وانتهت باستيلاء القوات العراقية على كامل الأراضي الكويتية في ٤ أغسطس، ثم شكلت حكومة صورية برئاسة العقيد علاء حسين خلال ٤ ٨ أغسطس تحت مسمى "جمهورية الكويت"، ثم أعلنت الحكومة العراقية يوم ٩ أغسطس ١٩٩٠ ضم الكويت للعراق وإلغاء جميع السفارات الدولية في الكويت، وإعلانها المحافظة رقم ١٩ للعراق وتغيير أسماء الشوارع والمنشآت، ومنها تغيير اسم العاصمة الكويتية.. في الطائف بالمملكة العربية السعودية، تشكلت الحكومة الكويتية في المنفى حيث تواجد أمير الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح وولي العهد الشيخ سعد العبد الله الصباح والعديد من الوزراء وأفراد القوات المسلحة الكويتية.. استمر الاحتلال العراقي الكويت لمدة ٧ شهور، انتهى الاحتلال بتحرير الكويت في ٢٦ فبراير ١٩٩١ بعد حرب الخليج الثانية.

***

٣- المصدر: الموسوعة الحرة.. ويكيبيديا.

مارس ٢٠١٣ :

من الغريب أن يمر أكثر من عقدين وأنت تحمل بين ضلوعك كل هذا الدمار والترويع والدم المراق.. دماء أمك بالذات، يتكون بداخلك كل ما يجعلك تتكور على نفسك.. كنت قد بلغت أوائل الثلاثينيات ولا زلت أختبئ بداخل قميص أبي لأدرك أن دقات قلبه ذاتها لم تعد كما كانت، أدرك أنه يشيخ حقًّا.. ها أنذا شاب مكتمل الرجولة ومفعم بالشباب ومنطوٍ على عالمي الذي يتبلور كله حول أبي وذكرياتي المميتة والميتة.. كانت مجلاتي لا زالت تقبع في أدراج كومود غرفة نومي.. لم أجرؤ يومًا على أن أتحرر منها أو على الأقل أن أبتاعها جديدة.. أتفاعل مع العالم الخارجي على استحياء وبخوف.. تُسقط عيناي كل ما عدا أبي على استحياء وبخوف.. أعتني بأبي على استحياء وبخوف.. هذه المرة تتضخم مخاوفي من أن أفقده، هذا الرجل الذي عاش خلف ملامح مقتولة ونظرات مغتالة وسعادة راحلة بغير رجعة، جعل من عالمه وأحلامه ومخيلته كل ما يجعلهم ينصبُّون جميعًا على شخصي.. كان يريد أن يغلغلني بضلوعه ولم يكن بحاجة إلى جهد كثير في الواقع.. إنني أحيا بداخلك يا أبتِ.. أتنفس أنفاسك.. فلا تخف، عشت حياتي بقاعدة ثابتة.. كل ما عداي وأبي هو آثم شرير.. مجتمعنا عدونا وحياتنا تنجو بالكاد

من فكيه اللذين يقطران دماء من سحقهم.. تخرجت من كلية التجارة والتحقت بالعمل في قسم الائتمان ببنك استثماري.. كان انطوائي أمرًا غير مفهوم وغير شرعي كذلك.. إذ كيف لهذا الوغد ألا يتظرف مع زملائه ولا كيف لا تلتهم نظراته جسد زميلاته، ولا كيف لا يبدي اهتمامًا بشيء أصلا.. ما لكم ومالي؟ أنا وقد ارتسمت على ملامحي نظرة من خبر أمر أكثر من طاقته.. أكثر من طاقة أي بشري في الواقع، فدعوني وشأني أرجوكم.. دعوني وشأني عليكم اللعنة.. في الصباح دائمًا ما أستيقظ قبل أبي لأعد له الإفطار كما جرت العادة في السنة الماضية إذ كان هو من يقوم بهذا الدور قبل ذلك، قررت فجأة أن أعني أنا به ولو بهذه الوسيلة البسيطة.. كان أبي قد استيقظ ليجدني أعددت له الإفطار.. يومها ارتسمت على وجهه نظرة فزع أفهمها جيدًا، جلس إلى المائدة مهمومًا ينظر لي بملامح تنبئ عما يصطرع بداخله.. كان قد فهم أنه في بداية طريقه ليسلّم مقاليد الأمور لي.. تسليم نفسه، وهو لم يعهد في قط إلا حاجة ملحة إلى حمايته ورعايته، لم يكن يوم الغزو يركض حاملًا إياي على كتفه هربًا من القصف فقط.. كان يعدو هربًا من القدر، ومن وقتها وهو يحملني ويفر لم يكن على استعداد لتفهم أنه قد حان الوقت كي أحمله أنا.. كان يرتجف فرقًا على مصيري.. وجدت عيناي تنزان الدمع

وهرعت إليه أحتضنه.. تلقائيًّا امتدت يده إلى رأسي لتطوقها وتدفنها في صدره.. هذه الدقات أصبحت غريبة أو أنها تغيرت.. إنها نذير بالنهاية.

"شيراز في اللغة الفارسية تعني اللبن الصافي.. وهي كانت كذلك، كالحليب المصفى في عالم أنقى ما فيه كانت دماء أمي والذين معها، زميلة عمل هي.. وهي الشيء الوحيد الذي وخزني لأدرك أن هناك ما يستحق الحياة خارج عالمي، بلوك المكاتب كان يضم مكتبي يقابل مكتبها، وكأني أطل من نافذتي الخاصة كاشفًا جانبًا من حياة حورية في جنة عدن، رقيقة كالحلم وحالمة كأحلام اليقظة.. عيناها سوداوان بلون الفخامة، شعرها كموج البحر ينساب على خديها اللذين يتبادلان شقاوة طفل رضيع مع شفتيها الناضجة كحبة فراولة صغيرة لن تجرؤ على قضمها ولا أن تبعد عينيك عنها.. رأسها يحتوي ملامحها في نورانية تغشي بصيرتي ويستقر على رقبة هي الرقة والعذوبة مجسدة.. مرمرية بلونها الأبيض المشرب بحمرة مستمدة من شفتيها، وجسدها هش ملتف بغير نفور.. أو أن نورانيتها حجبت بصري عن مفاتنها.. هي تذوِّبني كما تذوب حبيبات النسكافيه تحت وطأة الماء الساخن، هي تبعث الربيع في عالمي.. برسيفوني.. نعم هي برسيفوني باعثة الربيع في هذا العالم القاسي الخشن، كنت ألملم نفسي أمام طلتها.. هي تشرق كالشمس ولا تأتي، هي تخلعني من قلبي عندما تبتسم لي وتجلس في رقة ورشاقة وكأنها

ريشة استقرت هناك على الكرسي الجلدي الدوار خلف مكتبها، وفي الطرف الآخر يتقابل مكتبا "علي السمري و"مها القاضي"، كان "علي ذا حضور قوي حقًّا.. دائمًا ما تقبع نظرة من فهم الكتاب بأكمله من أول سطر داخل مقلتيه، أزعجتني نظرة الفهم في عينه، هو يعلم تمامًا أني مفتون بها.. وكأني كتبت على جبيني أني لها ومنها وفي عالمها صريع أنا ومشتاق و.. خائف، كان علي يعرف معنى نظراتي الأخرى التي تشير إلى ماضيّ المؤلم والأليم.. الخانق والقاتل.. المرتاع والهارب.. الضائع المفكك الدامي المشحوذ بدماء هي أطهر ما فيّ.. ولهذا كنت أفر من محاولاته الدءوب للتقرب وجذب الأحاديث خارج نطاق العمل.. ربما أكون متجنيًا إذا وصفته باللزوجة أو ثقل الدم، لكن محاولاته هذه مزعجة وترعبني حقًّا وأنا من وضع قاعدتي بنفسي وعشت بها.. وبرًّا بأبي لن أحيد عنها مها كانت تبذل جهدًا كي تثبت لشخصها وجودًا، فكانت عاجزة عن ذلك لأن الحضور الأقوى يبقى دائمًا لأنوثتها وتأودات وثنايا جسدها.. في تعبيراتها ميوعة مستترة وسكناتها تنادي رجالًا من السهل جدًّا أن يلهثوا وراءها، كنت أنكفئ على شاشة جهازي وأوراقي طوال اليوم لا تحين مني نظرات تجاه العالم حولي إلا تلك التي أخطفها تجاه حوريتي وملاكي الساكن أمامي، قطرة ماء اخترقت جوفي وسط صحراء الحياة الجرداء التي كانت بلا معالم وبلا أفق.

صوت الغسالة يخرق أذني.. الدم طفح فوق الماء المغطى برغاوي المسحوق وكأنه يريد أن يطبق على عنقي وكأن هذا الوغد لا زال حيًّا في دمائه ويريد الانتقام، تنفست بعمق محاولا التماسك.. ببطء انتزعت ما تبقى من ملابسي وأرخيت جسدي في ماء البانيو الساخن، إن جسدي ينتفض.. ينتفض، لا مفر وقد جاءت اللحظة التي لن تعود حياتي بعدها إلى ما كانت عليه أبدًا، الرعشة تنهل أوصالي وأكز على أسناني متشبثا بخيط واهٍ من التماسك.. بلا جدوى، لقطات سريعة لما حدث تنقض على ذاكرتي وكأنها تلطم وجهي في ضربات متلاحقة وساحقة.. اهدأ.. بالله عليك اهدأ، ما كنت لأفعل غير ذلك.. إما أنا أو هو.. حياتي أو حياته.. هو من أحال حياتي إلى جحيم.. هو من انتزع مني الشخص الوحيد الذي أردته.. هو من قصم ظهري وتغلغل في حياتي ليسحق أيامها وساعاتها ودقائقها.. هو من مزق مجلاتي، هو من أحاط بي فانتزع فتيل الشر ليطلق لمارد العنف العنان بداخلي.. لا أستشعر ندمًا.. ولم أحس شفقة عندما شججت رأسه ولا عندما أحرقته حيًّا.. فقط لو تكف الغسالة الحمقاء عن هذا الضجيج.. زنة عاتية تصك سمعي وقد اتخذ أزيزها نغمة تتكون ببطء.. ببطء.. لتشكل كلمتان اخترقتا طبلتي أذني:

"أنت قاتل.. أنت قاتل

من جيب السروال الجينز الأزرق المتسخ بالغبار والدم برز المسدس الذي أعطانيه "علي" ماذا لو علم بما حدث وكيف سيكون رد فعله.. قررت ألا أخبره كما قررت أن أقصي الدكتور "حسن من حياتي نهائيًّا فلم أعد بحاجة له.

"أنت قاتل.. أنت قاتل

نعم، أنا قتلت هذا الشيطان وغير نادم على هذا.. نعم، أنا لم أعد ولن أعود كما كنت، أنا متواجد كالقدر ولن أتنازل عني مرة أخرى.. ملأت رئتاي بالهواء في قوة.. أنا مفعم بالحياة.

(٢)

شردتُ للحظات ففارت القهوة، جريت كالملسوع لألحق ما بقي منها وأطفئ الشعلة من تحتها.. تنهدت بصوت عالٍ واستندت إلى رخام المطبخ بردفيّ محدقًا بصرصور صغير يفر هاربًا إلى البلاعة وقد أزعجه الصخب، ابتلعت ريقي بمرارة قبل أن أتحرك ببطء لصنع واحدة جديدة لأبي الذي يصر حتى الآن على قهوة الصباح وقد حاولت جاهدًا وبلا جدوى إقناعه حتى بمزجها باللبن، رائحة البُنّ المحترق تزكم أنفي وقد أخذت حبيباته الذائبة في تشويه سطح البوتجاز.. شردت في هذا كله فأدركت متأخرًا أن البيض قد تفحم في مقلاته، ارتبكت حواسي قبل أن ألقي بكل شيء إلى حوض المطبخ وأبدأ من جديد.. تبًّا لشرودي وذهني الجامح أبدًا في مدائنها التي تمتلئ بشوارع التساؤلات وميادين عينيها، كنت أفكر بها وفيها، ماذا لو كانت عيناي تفضحني بالفعل أمامها مثلما جعلتني -عيناي- كتابًا مفتوحًا أمام علي وهو الصائل الجائل في بحور كلمات مطبوعة لا تفارق يده أو حقيبة عمله، تراها شعرت بي؟ تراها تعرف؟ ابتسامة مريرة شقت وجهي وأنا أتذكر بسمتها وكلامها، وأتذكر ارتباكي وخجلي كلما وجهت إليّ حديثًا أو

نظرة ما، هذه النظرات أقوى من أن أطالبها بأن تصير ملكي، هذه النورانية أبهى من أن أضع بطاقتي عليها، أنا الذي عشت حياتي منزويًا في صدر أبي.. متكور على عالمي وفي أفقي يطل وجه بطوط ملوث بالدماء، أنا الذي أحيا لأموت نسيًا منسيًّا في أركان الخوف من اللحظة القادمة وصكوك القدر المحتدمة فكيف لي أن أطالب هذا البهاء بأن يصير لي.. أنا أحب وياللمفارقة، أنا أحب و.. سحقًا.. لقد فارت القهوة من جديد.

بعناية أرتب المائدة والأطباق عليها، أشذب المفرش من تحتها.. أتراجع خطوات لأتأكد من النتيجة.. ما هي النتيجة؟ واحد وثلاثون عامًا من الملل والانغلاق، واحد وثلاثون عامًا من الرتابة، واحد وثلاثون عامًا من اللا شيء.. يتصايح ما بداخلي:

- أيها السادة.. ٣١ / صفر لصالح الزمن.

وسط تهليل الأقدار وعيناها التي أشاحت بها عني.. دوى الصياح، بِغِل بعثرت جزءًا لا يحمل أطباقًا من قماش المفرش وكورته في فوضى أسفرت عن منظر محبب للنفس وكشفت جزءًا من خشب المائدة الذي لم أكن أعلم أن نقوشه بهذا الجمال.. وقفت أتأمله للحظات قبل أن أفيق من شرودي.

- يا عم يوسف.

صحت بها في اتجاه غرفة أبي، كالعادة سأسمع سعاله وحفيف أوراق جريدته قبل أن يظهر.. منذ الغزو لم يتوقف عن قراءة الجرائد فقط كي يعرف أن حياته تلخصت في مانشيت، انقطع الكلام عن الغزو لكنه لم ينقطع عن عادته، وتذكرت عندما طوى صفحة الغلاف لمجلتي وهو يحتضني متجاهلا أثار دمائه عليه ويبدأ في القراءة لي وكأنه بهذا يطوي جراح الماضي ويدخلني العالم الورقي الساحر الذي عشقته، حتى الورق الأبيض الذي لم تنسكب عليه أفكار وخيالات المبدعين جعل منه عالمًا آخر.. ذات مرة صنع من ورقة بيضاء متسخة وردة وقدمها لي مبتسمًا.. فما كان مني إلا أن فضضتها لأعيد صنعها بنفسي ففشلت.. ضحك كثيرًا وضمني إلى صدره.. ولكني بعد ذلك بمحاولات عديدة أهديته أول وردة ورقية من صنعي.. فابتسم، السنوات كانت تكوِّم جرائده وكتبه وتكوِّن عالمًا افتراضيًّا من الورق عاش فيه ممسكًا ومتشبثًا ومُدخِلا إياي إليه، حتى الذكريات لم نعد نملك منها إلا الصور.. صورًا عديدة لأبي وأمي وأنا أيام كانت لنا حياة وسبب لنعيش من أجله: يا عم يوسف.. لا رد.

توجهت لغرفته وقد أفعمني القلق لسبب مبهم.. أقترب ببطء من باب حجرته.. أمسك بالمقبض وأضغطه لأسفل.. صرير الباب اقشعرت له روحي، أبي راقد ورقبته ترتخي على كتفه الأيمن.. بدا في هذه اللحظة وكأنه قد ظهرت عليه علامات السنون فجأة، وكأني لم ألحظ من قبل ما تركه الزمن على وجهه من علامات.

- أنت نمت تاني يا عم يوسف.. دا أنا عاملك الفطار اللي أنت بتحبه زي كل يوم.

زي كل يوم! لِمَ خرج صوتي متهدجًا هكذا؟ لِمَ دمعت عيناي وقتها؟ ببطء أقترب وببطء أدرك الحقيقة، أقترب منه وكأن صورته هكذا هي التي تكبر وتقترب من ناظري.. جلست بجوار رقدته.

- عم يوسف.. بابا.

ذابت حروف كلمتي الأخيرة وسط دموعي.. انتفض جسدي كله وأنا أهزه.. انتفضتُ لدرجة أن انقطعت أزرار منامته، العالم يختفي خلف غشاوة الدموع.. أدلك صدره بهستريا.. أجذبه.. أسمع دقات قلبه الصامتة و.. وتوقفتُ.. بلطة كونية تشقني بالطول ومطلوب مني ألا أصرخ.. فمن سيحميني من الصراخ هذه المرة:

- ليه كده يا عم يوسف.. ليه.. سيبتني ورحت فين.. دانا كنت عاملك الأكل اللي بتحبه.. مين هاياكلهولك دلوقت؟

ببطء شديد امتدت يدي لتفتح قميص منامته عن آخره.. أنزل برأسي حتى أدفنه في صدره.. من جديد يختفي الكون إلا من أشواك شعر صدر أبي.. هذه المرة لن يشعر بدموعي فيضغطني إليه.. أمسكت بيده لأطوق بها رأسي.. وظللت هكذا.

- ليه كده يا عم يوسف؟!

بوووووووووووم: ماكو مقاومة.. ماكو مقاومة.

ظلام الصالة تشكّل ليخلق جوًّا موحشًا وكئيبًا، تصطرع على الجدران صراعات نفسي. فأنصهر معها، حياتي تنز بدماء تغرق الأرضية لتنطبع عليها أقدام فرمانات قدرية لا رجعة فيها، على المائدة لا زال فنجان قهوته كما هو منذ أربعة أيام ولا زال المفرش منبعجًا، حتى الآن لم أدرك كيف تم كل شيء.. لو أردت الذهاب إلى قبره الآن لضللت الطريق بأمر عقلي الرافض والمعترض على قبول القرار الأخير بل والمُلغِي له، تراخيت في جلستي وأغمضت عيني هربًا من المحتوم، أدلك وجهي ولحيتي المشعثة فقط كي

أتأكد أن ما يحدث هو حاضري أنا بالذات، من غياهب الحقيقة والواقع ارتفع رنين هاتفي، زدت في إغلاق عيني لعل الكون يختفي من حولي.. الهاتف لا زال يدوّي بنغمته في إلحاح، حانت مني التفاتة نحوه وأنا أفتح عيني فجأة وكأنني سمعته للتوّ.. لمحت شاشته تحمل اسم علي السمري قبل أن تسكت ضوضاؤه، لحظات سكون عابرة قبل أن تدوي النغمة من جديد، استشعرت فيها إلحاحًا أكبر:

- ألو.

- إيه يا رامي.. من يوم العزا وأنت مش بترد عليّا.

يد عابثة تحاول اختراق عالمي الملفوف حتى أنني لم أعد أعرف له رأسًا من ذيل.. ببرود أجبته:

- خير يا علي.. فيه حاجة؟

- أبدًا.. حبيت بس أفكرك إن آخر يوم في أجازتك كان امبارح وأنت عارف ياسين.. بارد وما بيعملش حساب لمشاعر حد.

- طيب شكرًا.

قلتها كسدادة فلين مسددة إلى حلقه لأخرسه وأغلقت الخط راميًا الهاتف بعيدًا.. أتنفس بعمق شديد وأغلق عيني عن العالم من جديد، ببطء تتحرك

داخلي ثم تبدأ في حركة سريعة ومصرة، تغسل مخي وروحي متغلغلة بكياني وتلملم بعضها خلف جفوني.. تحشد قوتها وقد أصبحت حركتها مريعة، تضرب بيد حديدية وأنا مُصر على غلق جفني مقاومًا مما يزيد من عزيمتها وقسوتها.. أخيرًا تهاوى السد ففتحت عينيّ لأنفجر بالبكاء.

التمع الضوء منعكسًا على سطح مرآة الحمام، ملامح غائرة في جسد نحيل أشبه بذرة غبار كوني بعثرته الأقدار ليفنى في هباء الزمن الأهوج، وجه خمري يحمل عينين انطفأ بريقهما للأبد، أمسك بماكينة الحلاقة وارتجف للحظات.. قرارًا بالاستسلام في طريقي لتقديمه صاغرًا تحت أقدام اللا أحد.. فلتفعل بي الحياة ما شاءت.. هلم بعثريني بين أضرحة اللا جدوى الصمّاء فمهما صرخت لن تسمعيني، بقسوة وجهت الطرف الحاد لشفرة الحلاقة إلى وجهي.. انتابتني ذكريات مقتولة وقاتلة.. طاعنة لمخيلتي وعقلي بغباء محموم لا يعرف طريقًا لتعقل ولا هوادة، تلاطمتُ وتبعثرتُ.. تمزقتُ وتلملمتُ.. في النهاية نظرت لهذا الكائن أمامي في المرآة، وجه حليق لتمثال من الشمع بلا مشاعر.. نظرة ميتة توحي بنصف حياة، غبت في ملامحي المعكوسة للحظات قبل أن يرتج كياني وأُقتلع من مكاني مرتطمًا بالحائط ورائي، انسحقت فقرات ظهري فسكنت لبرهة مقاومًا ألمًا رهيبًا، تراني تعثرت في شرودي ففقدت توازنًا منعدمًا أصلا؟ تحاملت

على نفسي لأقف وبصعوبة أخرج ممسكًا بظهري ومتأوهًا، ألقيت نظرة أخيرة على المرآة فرأيت انعكاسًا لمأساة هي أنا.

حين دخلت البنك صباحًا التفوا حولي ما بين معزٍّ ومشفق وحاشر لنفسه في الكادر كي يبدو شهمًا أو يلفت نظر من حوله إلى كونه رائعًا من الناحية الإنسانية.. فها هو يشارك الدودة المنعزلة المتشرنقة على آلامها فاجعتها، صوتهم بدا لي صخبًا يفعم المجرة.. سيخ حديدي مشتعل يخرق طبلتيّ أذني.

- البقاء لله.

- شد حيلك يا رامي.

- المرحوم دلوقت في مكان أحسن بكتير.. يمكن كمان نحسده ونتمنى نروحله.

يقولها ويبعد الشر عن نفسه في سره: ربنا يصبرك.. مفتعل آخر، صخب صخب صخب.. طنين وزنة عاتية، أتقدم إلى مكتبي ولا أرد.. فقط أتأمل وجوههم في كراهية أحاول إخفاءها، واستدرت لهم في عصبية حاولت ألا أجعلها عاتية:

- شكرًا شكرًا خلاص.. مش عايز حد يعزيني يا جماعة أرجوكم.

تسمّروا للحظات يتساءلون عما دها هذا المخبول، انفضوا ما بين مصدوم وممتعض ومحافظ على نظرة الشفقة.. انفّضوا فواصلت طريقي لبلوك المكاتب لأصطدم بعلي:

- رامي.. أنا مقدر طبعًا اللي إنت فيه لكن الحياة عمرها ما بتقف عند حد.. عشان كده....

هنا انفجرت:

- علي.. ده مكتبك وعليه اسمك (وأشرت إلى مكتبه) يا ريت تروح تكمل شغلك وتسيبني في حالي بقى.

ازْبَدّ وجهه وتدفقت الدماء حارة فيه حتى خيل إليّ أنه سينزف حالًا من فتحاته، انسحب متظاهرًا بأن ما حدث لم يحدث فعلًا ليستقر على مكتبه، هنا تبخترت مها لتميل عليه في دلال واضح:

- سيبك منه.. ده معقد.

- خير يا مها فيه حاجة؟

- طب خد.. الورق ده يتراجع عشان هيطلع للأستاذ ياسين.. كان مفروض يكون مع الورق اللي مع شيراز دلوقت.

نظر إليّ فوجدني أتابع الحوار دون مداراة، مجرد ذكر اسمها ينتزعني من كوني إلى كونها.. كان يكلمها بنفاد صبر.

- شيراز.. هي شيراز عند ياسين؟

ينظر لي بقلق وكأنه يريد إخباري بأنه يعرف - يعرف ماذا - أكان هذا قلقًا من أجلي؟

- وإنت مال وشك قلب كده؟!

أشار لمكتبها بنفس حدتي:

- شايفة المكتب ده؟ عليه اسمك.

- خلاص خلاص.. فهمت.

واستدارت في رشاقة مثيرة متجهة إلى مكتبها وهي ترميني بنظرة تهكم خبيثة قبل أن تتوقف وتكلم عليًّا ببحة من شأنها إذابة الحديد.

- وعلى فكرة يا علي.. اسمي ماهي.

نطقت الكلمتين الأخيرتين بما يناسب دلال جسدها الفاجر.

(٣)

كان موقع مكتب ياسين مذكور المحاط بجدران زجاجية والمرتفع ثلاث درجات عن الأرض يتيح له الكشف عن رقعة كبيرة من البنك أولها بلوك مكاتب شيراز وزملائها، لم يكن يتأملهم فحسب، بل كانوا يجرون داخل مقلتيه مخترقين مخه الملتهب، حياة ذات بُعد واحد.. ماذا عن تلك الحياة المسطحة التي لا تتجاوز رؤية واحدة وزقاقًا ضيقًا لا تستطيع السير فيه إلا مدفوعًا بفعل ضربات متلاحقة من أذرع العمر الفائت إلى وجهة محتومة بنهايتها الغامضة والمقيتة بكل ما تحمله من وعود قاسية لحبة عينه، ابنة فقدت حضنًا وحصنًا أنثويًّا كان مغمومسًا ومغلفًا بالأمومة، أو مسؤوليات المنصب الوظيفي داخل البنك والحفاظ على كونه حازمًا صلبًا خالي من نقاط ضعفه المتأصلة ولا يفوته شيء عن هؤلاء.. حفنة من الأوغاد ينالون يوميًّا ما لم ينله هو.. دماء الشباب المتدفقة في عروقهم وأحلام لم تنجز بعد، كان عليه كبح جماحهم كي يهدأ جماح نفسه، آه لو استطاع أن يندس وسطهم دون أن تبرز أربعة عقود ونصف منصرمة من حياته تاركة شعيرات بيضاء وصلعًا زحف على مقدمة رأسه وجسدًا بدأ في الترهل.. يتحرق قهرًا في لوعة الرغبة المحمومة بأن يكون منهم ويصير مثلهم.. يحيا حياة الرغبة والسعي.. الفشل والنجاح.. الحب والضياع..

حب؟ نعم وياللخزي هذا هو الشيء الوحيد الموجود بقوة وينتشر كالسرطان داخل روحه المتشققة جفافًا وعطشًا، ملائكيتها مع سلمى جعلته يهتم.. يفكر.. ينغمس.. يشتاق و.. ويحب، لو كان هذا الاندفاع بالقصور الذاتي في الحياة هو البعد الأول هنا والحاكم بأمره، فثمة بعد ثانٍ يتجسد في ملاك صغير منح الحياة هدفًا ليحياها.. ابنته سلمى والتي نوَّرت حياته بعد طول انتظار استمر لتسع سنوات، كانت هذه هدية زوجته الأغلى والأخيرة قبل أن تلقى ربها وكأنها بهذا أنهت دورًا في حياته جاءت لأجله ورحلت بعدما أنجزته، هل كان يحبها؟ كلا، لكنه كان معتادًا عليها.. انخرط في سنوات ما بعد التخرج حتى استطاع أن يجد لنفسه حجر زواية يبدأ به حياته، وزوَّجته والدته رحمها الله من ابنة أختها راغبة وآمرة ومتوسلة فاستجاب دون مناقشة، علاقته بالحاجة والدته كانت قوية جدًّا تملأ أركان عمره حتى إنه كان يناديها باسمها مجردًا بل ويدللها.. طمطم.. هكذا دون أية ألقاب أو حتى فاطمة كما كان اسمها الحقيقي، كان هذا قبل أن ترحل وتتركه داخل جدران الرتابة المسماة بالحياة، لم يخض يومًا مغامرات الشباب المعتادة ولا اندفاعها ولا حتى كان منتميًا لنادٍ كروي يشجعه بحمية وسط صخب المقاهي، كانت حياته هادئة كاللبن البارد يبعد بها متعمدًا عن أية مخاطر خوفًا على أمه وحرصًا على عدم إغضابها أو قلقها الزائد عليه، رحلت الأم ولحقت بها الزوجة وهو قد انطوى على جرحه لسنوات منعزلًا عما يثير شغفه

في العالم سوى سمسم كما تحب أن يناديها، كثيرًا ما كان يعوِّل على ناهد أخته في العناية بها.. ناهد شريكة حياة ورحلة عمر ولكنها لم تشاركه روحه القلقة أبدًا.. لطالما كانت هي محط اهتمام ورعاية العائلة، دافئة في أحضان الأخ والأم مستسلمة ومسلِّمة لأناس منها تعرف تمامًا أن لا خوف عليها ما دامت في كنفهم وحتى بعدما تزوجت وأنجبت، ولهذا كانت تحاول أن ترد جميلا غير مطالبة برده في أن تعوض حبة عين أخيها عما افتقدته وأن ترعاها كأمها قدر الإمكان، سلمى التي انتظرها طويلا.. هكذا هو.. عاش حياته مفتقدًا للأنثى أو منتظرًا لها، رأى حلمه يتقدم نحو المكتب بالخطوات التي تسري ولا تسير، هي تنساب إلى عالمه كورقة شجر عرفت طريقها إلى جدول مياه دون أية مقاومة ولقد أحب هذا الانصياع.. اتخذ وضعًا رسميًّا خلف مكتبه مستعدًا لملاقاة شيراز التي ستدخل حالا نعم هو يريدها، فبها تكتمل الحياة.. كان يريد البعد الثالث.

- الملفات الخاصة بالعملاء.. استوفوا ورقهم خلاص.

بسمتها نسمة باردة لها طعم النعناع في ليلة صيف، يدها الممتدة لتضع دوسيهًا على مكتبه سترجع بقلبه، هذا شيء حتمي.

- قفِّلتيهم خلاص؟ هايل يا شيراز.. أنا دايمًا بثق في شغلك.

- شكرًا يا أستاذ ياسين.. أي طلبات تانية؟

الطلقة لم تصب ولم تنجح في إذابة الجليد الفورمال.. متسلق جبال يواجه صخرة مستعصية على اعتلائها.. هو التأرجح متمسكًا دون يأس إذًا.

- آه.. على فكرة.. سلمى بتقول إنها بتحبك أوي.

- ربنا يخليهالك.. أنا كمان بحبها أوي.

اليد اليمنى تتشبث.. في طريقه لدفع الجسد كله.

- تعرفي.. دي بتقول عليكي ماما شيراز.. نفسها بجد تبقي إنتي مامتها.

- ربنا يرحم مامتها ويعينك على تربيتها.. بعد إذنك.

انزلق وتعثر، فليهدأ وليبق متشبثًا.. رحلت وقد أضافت المزيد من الجليد، هو الرفض المنذر بالهدم إذا تمادى.. شعر بروحه تبلغ حلقومه، يراها تدلف إلى بلوك المكاتب، هناك عينان جائعتان لها كانتا تتابعاها، عينان ارتسم فيهما الهم الأزلي ولا تلتمع بابتسامة إلا بوجودها، في عصبية وضيق صدر شديد هرس زر الإنتركوم طلبًا في استدعاء صاحب العينين، صوت غليان روحه طغى على كلمات جملة: "حاضر يا فندم" التي انبعثت من الجهاز.

***

خرجتُ من مكتب ياسين والدماء تحتشد في وجنتيَّ وأذناي، ما الذي يريده هذا الصلف الذي نبت منه رجلا؟ توبيخ زاد لدرجة التبويخ دون جريرة، تكليفي وحدي بمهام يقوم بها ثلاثة أفراد ليوم كامل دون استراحة حتى ينجزوها.. قال إنه يريدني أن أدفن أحزاني في العمل، الحقيقة أن الشيء الوحيد الذي أردت أن أدفنه لحظتها هو ياسين نفسه.. لكني كنت قد قررت إهالة التراب على مشاعري وردود أفعالي أنا وبيدي، لن يفهم أني مجرد قشرة يرسمها ويحركها القدر.. العالم بأسره لا يفهم حقيقته.. يتصورون أن الكون وجد كخلفية لحياتهم وأن باقي الخلق ما هم إلا كومبارس في فيلم طويل يلعبون فيه دور الشخصية الرئيسية، ثم ما الداعي لكل هذا! لست مهماً لدرجة أن يتوقف العمل من دوني ولكنه الدور الذي أراد أن يلعبه.. أنا رجل حاذق وحازم وأنتم هنا رعاع تحت إمرتي أستطيع تشريدكم بجرة قلم وقتما وكيفما شئت.. حسنًا تركت له هذا الدور كاملا دون تدخل وظللت صامتًا ومواصلا لقراري القدري المُرغِم بالاستسلام.. يبدو أن ملامحي كانت تعكس ما حدث، فمجرد جلوسي شعرت بنظرة شيراز المتفحصة والمتسائلة.. حاولت أن أبدو هادئًا وقلت بابتسامة مفتعلة:

- جت سليمة.

- مانا قلت طالما مافيش دم على هدومك يبقى عدت على خير.

وضحكتْ.. فابتمستُ، ما شعورك تجاه طفلة رائعة الجمال تضحك لك أنت بالذات وهي تمد يدها الصغيرة لتداعب أرنبة أنفك.. حسنًا، هذا هو إحساسي حرفيًّا.

- على فكرة أنا خلصت شغلي.. لو عندك شغل زيادة ممكن أساعدك فيه.. يعني.. عارف إن الحمل هايبقى تقيل عليك النهارده.

يقولها علي وهو ينظر تجاه مكتب ياسين، فتعقد شيراز حاجباها ناظرة له وهي تبتسم في فهم، ومصمصة شفاة مها تذيل جملته.. شعرت بخجل لما أدركوه فطأطأت برأسي:

- شكرًا يا علي.

****

وكأنه مشهد من فيلم سينمائي رآه من قبل عشرات المرات، الباب سيفتح وستجري سلمى إلى حضنه بينما تبتسم ناهد في ترحاب باطنه نشوة خلاص قبل أن تعدل من هندامها سريعًا استعدادًا للخروج المتعجل لتلحق ببيتها وزوجها، قبل أن تتوقف لتلقي عبارات التوصية بالزواج سريعًا من أجل البنت.

- باباااا.. وحشتني.

بلهجتها الطفولية المضحكة والتي تمزق نياط قلبه فرقًا عليها تقولها.. أوحشتني يا أبي.. لا يعلم متى سيتلقى هذا النداء وهو نائم في قبره فلا يقدر أن يلبي.. عندها وحتمًا ستغرق دموع روحه القبر في محاولة للتجسد من جديد.. فقط كي يهرع إليها، تقف ناهد مبتسمة في حنان:

- خلاص ارتحنا كده.. أهو بابا جه أهو.

- اوعى يكون سمسم اتشاقى ودايق عمتو.

- خالس مالس يا بابا.

تهز رأسها الصغيرة وتضرب كفان ملائكيان ببعضهما، كم هو كفيل هذا المنظر كي ينهال عليها بقبلاته واعتصارها داخل ضلوعه، تسحبها ناهد من بين ذراعيه وهي تتصنع عتابًا ضاحك:

- ياللا ننام بقى.. ميعاد نومنا فات من زمان.

تميل الصغيرة بجذعها لتقبله على خده: تصبح على خير يا بابا.

فك ربطة عنقه وجلس شاردًا في نظراته لهما، وتدخل ناهد إلى المطبخ لتسخين غدائه كالمعتاد في كل مرة يطلب منها الجلوس مع سلمى لأنه

سيتأخر قليلا بالخارج، كان يتابعها وهي ترص الأطباق على المائدة، قبّلته على جبينه بحنان:

- إيه اللي أخرك كده؟

- معلش يا ناهد كنت عايز أشم شوية هواء.. مخنوق.

- مالك يا حبيبي.

تطوق كتفيه وتربت عليه.. يا لك من عزيزة غالية، يعلم الله كم أحبك.

- ما فيش حاجة يا نانا.. شوية مشاكل في الشغل.

نظرت إليه بتمعن وكأنها تستكشفه.. ابتسمت ونظرت له بمعنى "سأنتظر أن تلقي بها في نفسك بنفسك"، عدلت من هندامها وهي تضحك:

- لازم أمشي دلوقت.. أنت عارف ممدوح مش بيعرف يعمل لوحده كوباية شاي.

بابتسامة مريرة شقت شفتيه أجابها:

- معلش يا ناهد.. تاعبك معايا.

- كلام أيه ده بس.. دي بنتي يا ياسين، أنت فاكرها بنتك لوحدك.. بس عايز الحق أنت لازم تتجوز.. تشوفلك واحدة بنت حلال وتكون حنينة على البنت.

هز رأسه في موافقة فض المجالس فقبلته ثانيةً على جبينه وكأنها بهذا تحيي عادة أمها.. وانصرفت.

لِمَ لم يخبرها بما كان يفعله؟! ضجيج المكان لا زال يطن في أذنه، ونظرات الفضوليين لا زالت ترشقه، ببذلته الأنيقة ووقاره يندس في ذلك المقهى الغالب عليه طبع شباب العشرينيات وقد اصطفوا في كراسيهم لمتابعة مباراة كرة قدم في الدوري المصري.. لم يكن يريد سوى أن يختفي في هذا العالم برغم أنه لم يكن لديه أي انتماء لنادي معين حتى إنه هلَّل فرحًا لهدفين في شباك الفريقين فقط كي يبدو مهتمًّا مثلهم، في الهدف الأول لمح لاعبًا ما من فريق الأهلي يجري فاردًا ذراعيه بعدما أحرزه وأخذ يتمايل يمينًا ويسارًا قبل أن يحاط بزملائه وتهليل شباب المقهى فبالغ في فرحته حتى إنه صفق بيديه في جذل، عندما أحرز لاعبو الفريق الآخر هدفًا أدى نفس الدور تقريبًا فقتلته نظرات من حوله، تسمّر في حرج بالغ ولزم مقعده من جديد ناظرًا للجمع ولم يجد مبررًا لتناقضه سوى:

- أصلي.. إحم.. بشجع اللعبة الحلوة.

تدثر بنفسه خجلا لدقائق ثم غادر المكان بعدما طاف بنظره بحثًا عمن يحاسبه على كوب الشاي الذي لم يمسه.. ناداه بعبارة: الحساب يا برنس.

وهي عبارة ومصطلح غريب عليه وهو من اعتاد على إشارة أنيقة من يديه مع جملة: "الشيك لو سمحت

***

تصدح في الأجواء مقطوعة چورچ زامفير الخالدة "الراعي الوحيد"، وأجلس على الأرض وقد تناثرت حولي صوري مع أمي وأبي رحمهما الله، أخرجتها من الصندوق العتيق الذي كان لأمي.. هذه مع أمي وهي تحتضنني بشوق وتضحك تلك الضحكة التي كانت مصدرًا للحياة، وهذه وأبي يقذفني لأعلى بينما أمي تشهق في خوف وأنا أكركر ضحكًا لأنني على يقين بأن أبي لن يتركني أسقط، وثالثة وأنا أتوسطهما، وتلاشت أمي بعد عدة صور، بقيت وأبي في لقطات انتُزعت من الزمن وعلى مراحل عمرية متغايرة.. بجواري المجلات أفر أوراقها وأتشممها، أغمضت عيني واستندت بظهري ورأسي إلى الجدار، أمسك عددًا من الصور بيد والمجلات بالأخرى، جدران الغرفة تتشوه خلف غشاوة الدموع، أنسحق تحت مطارق الذكريات وفوق سندان الوحدة والفقد، يا الله ألا تردهما!

أرتعش.. أرتجف بردًا، ضممت يداي على جسدي ممسكًا بعمري الراحل.. عمر لم يبقَ منه سوى أوراق ملونة وطاعنة وزائفة، هؤلاء ليسوا هم.. هؤلاء توقف بهم الزمن لسعادة ناقصة في عالم الممكن.. عالم الواقع، تعالت اهتزازات جسدي فبحثت عن صدر أبي وما وجدته، عن حنان أمي فطفح دمًا ترك أثره على الورق.. تشنجت وقتلتني النهنهات.

- الله يرحمكم.. ادعولي من عندكم.. أنا تعبان أوي من غيركم.

(٤)

كانت هذه اللحظات هي الأمتع والأكثر سعادة بالنسبة لشيراز، ضحكات سلمى تملأ جنبات هذه الساعات فتعيدها طفلة تلهو ببراءة مع أمها -رحمها الله- وهي تفعل بالظبط لسلمى كل ما كنت تتمناه من أمها، لهو وضحك وألعاب شتى لا تفوِّت إحداها على مدى اتساع أرض دريم بارك.. في عقلها تتداخل ضحكات سلمى مع ضحكاتها وهي لم تزل بعد طفلة، كان هذا قبل أن تواجه كابوس رحيل الأم.. مبكرًا جدًّا في الواقع، فجأة انطفأ الضوء الساطع في حياتها ولم يعد هناك إلا شذرات الضي التي يسعى والدها جاهدًا حتى يبقيها مشتعلة على مدى عشرين عامًا، الحق أنه نجح في هذا فالرجل عزل نفسه تمامًا عن شهوته للنساء من أجلها بالرغم من كونه كان وسيمًا - وهو ما يجده الناظر إليه الآن من ملاحة لم يستطع الزمن محوها كلها- ولبقًا هادئًا لا ينفعل بسهولة، حنونًا جدًّا وأضف إلى هذا اللمسة المضافة بكونه مخلصًا لحب عمره حتى بعدما رحلت تاركة قطرة من ندى عطر ملائكيتها كانت هي المنبع لوجود مرهف ورقراق تمثَّل في شيراز نفسها.. باختصار كانت هناك نساء مستعدات لقطع أذرعهن في سبيل الفوز به وهو قد ضحى بكل هذا من أجلها.

منهكة وسعيدة ومحمرة الوجنتين من فرط النشوة عادت الطفلة جريًا إلى أبيها وقد سبقت شيراز، بجوار ياسين في الكافيه الصاخب يجلس مصطفى والد شيراز بوقاره وهدوئه المعهودين مبتسمًا للطفلة التي بدت في أسعد أوقاتها فتلقفها ياسين بحنان بالغ ليجلسها على حجره، ووصلت شيراز للمكان فنهض مصطفى مستعدًّا للرحيل.

- أنا بجد مش عارف أشكرك إزاي.. الفرحة اللي في عيون سمسم دي بعمري.

قالها ياسين وهو ينظر لشيراز بامتنان عظيم، كان حبه مفضوحًا ورجاؤه يكاد أن يصرخ ويركع تحت قدميها متوسلًا.

- لا شكر ولا حاجة، أنا كمان ببقى مبسوطة أوي معاها.

- طيب يا أستاذ ياسين.. فرصة سعيدة جدًّا وإن شاء الله أشوفك تاني.

قالها مصطفى وهو يصافح ياسين وقد لاحظ ما اعترى ملامحه التيَّامة بابنته.

- متشكر جدًّا يا عمي على اليوم الجميل ده.

- ما تقولش كده دي بنتي.. باي باي يا سمسم.

- باي يا عمو.

ابتسم مصطفى بحنان للطفلة قبل أن يتأبط يد ابنته ويرحلا، وشرد ياسين لثوانٍ قبل أن يفيق على أصابع سلمى تداعب وجهه فاحتضنها بقوة بالغة.

- حبيب بابا إنت يا سمسم.. بتحب ماما شيراز؟

- اااااااااد كده.

تفتح ذراعيها عن آخرهما وتتسع ابتسامتها فيقبلها أبوها بين عينيها بحب جارف.

في سيارة مصطفى انبعث من الكاسيت صوت أم كلثوم الشجي يملأ عالمها بالـ " اللي بيشكي حاله لحاله، واللي بيبكي على مواله.. أهل الحب صحيح مساكين.. صحيح مساكين كان مصطفى يهز رأسه في انسجام وهو يستعيد بسمة من ذكريات لابد أنها كانت مبهجة.

- إلا قولي يا درش؟

- ممم؟

- إيه حكاية يا عمي دي؟

قهقه ضاحكًا: إنتي خدتي بالك؟

نظرت إليه بخبث باسم وأسندت ذقنها إلى كفها المفتوحة بانتظار رده.

- ياسين طلب إيدك رسمي.

اربَدَّ وجهها على الفور، نظرت متعجبة لأبيها وارتبكت:

- إزاي يعمل حاجة زي كده من غير ما يقولي؟!

- وهو إيه اللي حصل يعني.. الراجل دخل من الباب.

- كان لازم يقولي الأول.. وعشان يدخل من الباب لازم حد أصلا يكون دعاه ومستنيه.. وبعدين إنت موافق ولا إيه؟

- يا حبيبتي ده قرارك إنتي.. أنا بس مقدر شعوره وحاسس بيه، أنا ياما تعبت عشان ما تحسيش بالحرمان من مامتك الله يرحمها، كنت ليكي أب وأم وبرضه الأم ما تتعوضش.. إنتي إيه رأيك؟

- مانت عارف، أنا بكره هاقوله إني رافضة كده صراحة طالما مافهمش من ردودي على تلميحاته، وبعدين إنت ما تجوزتش يا درش.

- أضافت جملتها الأخيرة بدلال طفولي ذكره بها عندما كانت تطلب منه شيئًا وهي ذات أربعة أعوام.

- مانا لو كنت لاقيت ملاك زيك كنت اتجوزتها على طول.

قالها وضحك من قلبه، قبلته على خده بحنان بالغ وهي تشاركه ضحكاته: أنا بحبك إنت يا أحلى راجل في الدنيا.

"مش صغيرة عليك دي يا جدو

اقتحم هذا الصوت لحظتها الضاحكة، كان هذا أحد الشباب المارة من طراز العابثين، نظر إليه مصطفى لثوانٍ قبل أن يعلو صوته بالغناء فجأة وهو يبتسم.

- ياما الحب نده على قلبي ما ردش قلبي جواب.

وغرقًا في ضحكات عذبة.

حفلات التوقيع هي الملل بعينه، هكذا فكر علي السمري، بينما هو يتابع مجريات الندوة بنصف وعي ونصف اهتمام، كان مجبرًا على ذلك من أجل داليا.. هو يهيم بها وعليه أن يبدو مهتمًا بعالمها الجديد ككاتبة واعدة صدر لها أخيرًا مجموعة قصصية بعد شق الأنفس ودفع مبلغ محترم للناشر الذي وقف أمام كاميرات القنوات المحلية أو تلك التي لا يتابعها أحد راسمًا نظرة صاحب رسالة الرقي بالثقافة وهو يعلن أنه فقط يساهم في مساعدة هؤلاء المبدعين الصغار الجدد، وهذا بالطبع بعدما اطمأن على ارتفاع رصيده في

البنك، كانوا جلوسًا باستوديو أرابيسك بوسط البلد يناقشون مجموعتها الوليدة، وكان الحضور لا يتعدى الأصدقاء والأقارب أو زملاء من نفس النوع الحالم، وكالعادة سينتهي الأمر بتوقيع بضعة نسخ وسط ابتسامات مفتعلة، في النهاية يسلِّم الكتاب نفسه لأتربة الأرفف أو مخزن الدار بعد طبع مائة أو مائتي نسخة من أصل ألف وهو الرقم القياسي لعدد نسخ الطبعة الواحدة، كان الناشر يجلس بجوار داليا وعيناه تجري على مفاتن الآنسات والسيدات مما ظهر منها أو تجسّم أسفل الملابس الضيقة، هناك شاعرة من الطراز المتحرر قاطعت الحوار أكثر من ألف مرة فقط كي تثبت وجوداً وتبرهن للكل على أنها الأفضل بموهبتها الفذة وعقلها الحر و.. وسيقانها العارية حتى الفخذين من أسفل تنورة قصيرة ارتدت عليها سترة مفتوحة يظهر من تحتها فيست بحمالات رفيعة يبرز منه نصف صدرها العامر، كانت تعلن اشمئزازها من الرجال الذين لا يرون في المرأة سوى جسدها، وكانوا يوافقونها فورًا وكل منهم يتخيل ما سيفعله بها لو انفردا على فراش.. يتفننون ويتفانون في إظهار إعجابهم بمواهبها، ويؤكدون على أن العالم صار قذرًا شهوانيًّا، الخلاصة أن اليوم هو يوم ثقيل بلا رومانسية كان قد وعد بها نفسه

حين يلتقيها، الصداع سحق رأسه فالمجد للبنادول إذًا، الأدهى أن ياسر همام (الناشر) كان يبدي اهتمامًا زائدًا ونظرة مسبلة بلهاء حين يكلم داليا.. فليمر هذا اليوم اللعين على خير قبل أن يشج رأس هذا الحيوان.. هذا فقط ما تمناه الآن.

والحقيقة أنه كان عاشقًا للكتب وقد فتنته الكلمات المطبوعة منذ زمن، ما أثار حفيظته هو كل هذا الجو من الافتعال والتكلف.. أحنقه أن تكون أوراق الكتب ستارًا لرغبات شهوانية مريضة أو وسيلة لكنز المال والتلاعب بأحلام أرباب قلم يبحثون عن أنفسهم، لكن داليا في النهاية سعيدة تحتضن يده بيد وتمسك كتابها بالأخرى.

- ماقُلتليش إيه رأيك.

- مبروك.

- شكلك قافش ليه كده؟

تأمل خصلات شعرها المتطاير وحركتها الفاتنة في إزاحته عن وجهها وابتسم.

- على فكرة آخر اللي بيحصل ده هايكون مجموعة كُتاب بيقرأوا لبعض.. الناس هاتفضل تشتري للكاتب الاسم بس.

- غلط يا أستاذ.. الكاتب طالما قادر يعبر عني وعنك وبيقول اللي الناس حساه ومش عارفة تقوله هايفرض نفسه وينجح ويكبر.

- بقى صعب جدًّا دلوقت.. إزاي تقدري تطلعي ده من وسط كل دول.. ده فيه خمسميت إصدار للشباب وكلهم مرميين على الأرفف.

- لا فيه.. عندك أحمد مراد مثلا، الناس بقت ملهوفة على رواياته، وكل شغله بيتحول سينما أو تليفزيون.. كريم عبد العزيز دلوقتي بيصور الفيل الأزرق.

- تفتكري فيه كام واحد ممكن يبقى فلتة كده.. الناشرين كلهم طلعوا في موضة ادفع كام ألف وانشر.. إن شالله تكون بتهرتل ومعدوم الموهبة أصلا مش مهم، المهم الفلوس ادّفعت وخلاص.. وهما دارين تلاتة اللي بتنتج على حسابها ومش أي عمل بتاخده.

استوقفته ولامست أنفه بسبابتها مبتسمة:

- بكرة تشوف داليا نوري.. هاكون أشهر من أحلام مستغانمي ورضوى عاشور.

لمستها بعثت في جسده رعشة عاشق.

- عارفة لما بتفرحي.. الدنيا بتضحك.

واصلا سيرهما إلا أن عليًّا عاد للتوقف فجأة قائلًا بغضب كأنه تذكر للتو:

- وإياكِ تقابلي ياسر ده من غيري.. فاهمة.

تأملت غيرته الواضحة قبل أن ترفع كتفيها بفرح طفولي.. وتبتسم.

أكثر ما كـان يضايقها هو نظرات الرجال الطاعنة لجسدها، كانت تشـعر بها قبـل أن تراهـا وسط صخب الحيـاة وحركتها الدائبة، فجأة تسكت الموجودات عن إسماعهـا سعـي السـاعين ومروق السيارات وزخم البشر، صراخ السائقين وصراعهم على من له الأولوية في تحميل الرُكَّاب ونفور ونفاد صبر الرُكَّاب أنفسهم، فجأة يسكت الكون ويبقى طنين النظرات الملتهب الذي يلتهم مفاتنها، ولهذا هي دومًا تتأخر في الركوب لمحاولاتها منعدمة الجدوى في تلافي الاحتكاك بهذه الأجساد العفنة ذات رائحة العرق العطنة، وبرغم كل شيء انحشرت مها القاضي في المقعد الخلفي لعربة الميكروباص ما بين الجدار الحديدي ذي النافذة المغلقة للأبد وشاب سمج يبدو عليه الجهل والغباء ولزوجة الروح ذاتها، شعرت بحركة فخذه وهو يلصقه بفخدها ويبدأ في تحريكه لأعلى وأسفـل.. نظر إليها بملامح استمتاع حيـواني وزاد من سـرعة حركة قدمه.

- ما تخلي عندك دم وتوسع شوية.

هكذا صاحت بتنمر وهي تنظر له باشمئزاز وقرف أكلا ملامحها الجميلة.

- وأنا أعمل إيه يعني يا أبلة.. الميكروباز زحمة.

- ميكروباز! احترم نفسك ووسع شوية.

هنا تدخل التبَّاع وعلى وجهه علامات الاستمتاع بما يحدث لهذا الفرس القادم على ساعة الاستصباح.

- ما خلاص يا أستاذة.. نستحمل شوية لحد محطتك.

- أستحمل؟ جتكم القرف رجالة ورق.

- الله ليه كده بس يا أبلة، انزلي خديلك تاكس وبلاش تنطيط على خلق الله.. زباين تقرف.

- احترم نفسك يا جدع إنت.

هكذا صاحت فيه وهي تنظر للجميع وكأنها تستغيث بأحد غير موجود أصلا، وصاح السائق من مقعده:

- خلاص يا أستاذة، حقك علينا.. لم نفسك ياض يا فيشة.

وعلى الفور لم فيشة نفسه وأخذ يبرطم في سره بلعنات تنهال على الجميع بما فيهم هو نفسه، وغلت دماء مها في عروقها وهي تحشر حقيبتها ما بين فخذها والنطع كحاجز يمنعه من الاحتكاك بجسدها ومحاوِلة مداراة دموع القهر التي اغرورقت عيناها بها.

اندفعت شيراز إلى مكتب ياسين وملامحها تحمل أمارات الغضب، كانت تنوي وضع حد لحكاية العاشق هذه، هو لا يناسبها، ولا تراه بطلًا لحياتها وإن كانت تحب سلمى فهذا شيء آخر له اعتبارات أخرى، ثم إن - صارحت نفسها بخجل- قلبها معلق بآخر.

- صباح الخير يا أستاذ ياسين.

- صباح النور.

قالها بإحباط كأنما عرف ما هي قادمة لتقوله.

- بخصوص الطلب اللي طلبته من بابا إمبارح كان مفروض حضرتك تقول....

قاطعها بهدوء في محاولة لامتصاص غضبها:

- لو كنت جاية ترفضي ارجوكي ما تكمليش.. خدي وقتك وفكري.. طلبي ده ماكنش عشاني لوحدي.. إنتي عارفة سلمى بتحبك إزاي وأنا هاكون أسعد إنسان في الكون لو قبلتي، عارف إني كان مفروض أقولك إنتي

الأول لكن أنا عارف كويس أوي إن باباكي هايحس بيا وبالبنت اللي اتحرمت من مامتها.

كلام مرسل عفى عليه الزمن.. ثم ما هذا السخف؟! زواج لمجرد أن ابنته متعلقة بها؟ تحمّل مسؤولية ابنة لم تنجبها مدى الحياة لمجرد أن أباها يريد هذا؟!

- وأنا فين من كل ده.. أنت كده بتلغيني.

- أنا فيا أيه مش عاجبك؟!

صاح بها وقد خابت محاولته اللعب على وتر عاطفتها المشتركة مع ابنته.

- لو سمحت بلاش تضغط عليّا.. أرجوك.

- أوكي.. خدي وقتك وبراحتك خالص وأنا هأعتبر نفسي لسه طالب إيدك دلوقت.

نفخت بيأس ورمقته بنظرة حادة.

- بعد إذنك.

وغادرتِ المكتب.

***

هناك جو عام من الوجوم، مهما لم تكن على ما يرام وعادت شيراز من مكتب ياسين بوجه يخفي توتره خلف ابتسامة مفتعلة وعلي كان شاردًا

مهمومًا، جلست صامتًا أتابعهم قبل أن أدفن رأسي في شاشة الكمبيوتر على مكتبي، كنت قلقًا ويقتلني الفضول لمعرفة ما دهاها، فاتنة حتى وهي غاضبة ومتوترة.. تأملت ملامحها الرقيقة، كيف يجرؤ أي شخص -أو أي شيء- على إغضاب هذا الملاك، أمسكت قلمي وشرعت أخط كلمة "بحبك"، أعدت كتابتها مرات ومرات، وتأملت هذه الحروف التي كُتبت لها وحدها وشعرت بأن مشاعري تجاهها لابد أن تكتب على السماء لا على الورق.. على الفور أمسكت بالورقة وطفقت أشكّلها على شكل وردة كما علمني أبي.. لما انتهيت شعرت بسعادة وفوجئت بشيراز تقف أمامي وتبتسم.

- الله.. حلوة الوردة دي يا رامي.

وببساطة انتزعتها من يدي المستسلمة، ارتجفت خوفًا من أن تلحظ ما كتبته بالداخل.. إنها تتأملها.. ملامحها تقطب.. ترفع الوردة أمام المصباح النيون لتعرف ما كتب داخلها، أدركتُ ما كتبته ونظرت إليّ.. ابتسمت ولمعت عيناها، فجأة ظهر ياسين من العدم وامتدت يده ليخطف وردتي.

- متهيألي إحنا هنا جايين نشتغل.. مش جايين نلعب بورق البنك ونعاكس الآنسات اللي هنا يا أستاذ رامي.

مجرور انفتح لينشر خراءه في وجهي، وتسمرت في حالة أقرب إلى الشلل الكامل ولم أستطع أن أنطق بحرف واحد.. رد الفعل جاء من شيراز:

- ما حصلش حاجة يا أستاذ ياسين، ولو سمحت دي مش طريقة.

لم يعرها اهتمامًا، كانت ضجته قد جذبت العديد من الموظفين والعملاء معًا وكلهم كانوا يأكلوني بنظراتهم الفضولية الكالحة، وسمعت همهمات عديدة ميزت منها "هو فيه إيه" تتكرر كثيرًا، ولكن نظرة ياسين كانت أشدهم طرًا.. يتطاير منها الشرر:

- مخصوم منك يومين عشان بعد كده تبقى تحترم نفسك.

صاح بها كأنه يُسمع الجمع ليعرفوا أنه الأعلى هنا والمسيطر، وبقسوة ألقى في وجهي الوردة لتصطدم بجبهتي وتسقط على الأرض.. أخيرًا تحررت من تسمري وطفحت دموعي لتغرق وجهي في صمت.. ثم اندفعت مغادرًا المكان، ولم يلحق بي سوى صوت شيراز وهي تناديني محاولة استبقائي.. "رامي.. رامي"، لكني كنت قد اختفيت.

(٥)

أرخى ياسين جسده على مقعد مكتبه مسندًا رأسه إلى الوراء بشدة حتى خيل إليه أنه سيسقط مغادرًا رقبته ليتدحرج على الأرض، ما الذي دفعه لهذا؟ أهي الغيرة! ثم هل يمكن أن يكون بينها وبين هذا المهزوز المرتعد من ظله شيء.. تراهما متحابين وقد أخفيا ما بينهما حرصًا منها عليه وخوفًا من سلطته وما يمكن أن يسببه له من متاعب؟ هل يمكن لهذا السلبي المتقوقع على نفسه أن يسلبه المرأة الوحيدة التي أحبها، لا لا لا هي فقط متعاطفة معه سيما بعدما فقد أبيه أيضًا، وقد كان له السند الوحيد في الدنيا، ولكن ماذا لو كان ما افترضه صحيحًا؟! صبرًا.. ليلقنه درسًا قاسيًا لم يعرف مثله قط، ولكن مهلًا.. ما هذا؟! هل وصل الأمر إلى حد أن تتلاعب به غيرته كما المراهقون، هل استطاعت شيراز أن تتغلل داخل سنوات عمره فتمحو معظمها ليغدو غريرًا ذا عاطفة مندفعة وحمقاء.. مر يومان على ما حدث وقد أسفر عن تجاهل تام من شيراز وجفاء صلد لن يُنبت شيئًا من المسامحة، كما لاحظ نظرات علي المتهمة المداراة خلف الرسميات، هو يقف أمامه الآن وقد جاء بطلب إجازة للمتقوقع في انتظار توقيعه.

- أرجـوك يـا فنـدم.. كلنـا عـارفين حالتـه بعـد مـوت والـده الله يرحمـه.. فحضرتك تتكرم وتوافق.

- هو مفكر نفسه شغال فين؟!

قالها وفتح عينه فجأة ناظرًا لعلي بحزم.

- يعني بعد إذنك أنا شايف إن كفاية اللي حضرتك عملته فيه.

- افتريت عليه يعني؟!

- مش قصدي.. بس حضرتك تسرعت في الحكم على الموقف.

تنفس بعمق وقد ارتأى أن لينه قد يصلح ما أفسده.

- مـاشي يا علي.. مـاشي.. وده عشان خاطرك أنـت بس.. آدي موافقتي على الإجازة بتاعته وقوله إحنا هنا جايين نشتغل مش نهرج.

- لا بيرد على تليفونه ولا عارف أوصله.

- مش مشكلتي.. الأجازة أسبوع بس لو ما جاش بعدها هاتخذ إجراءات رسمية.

كتم علي غيظه وانتزع ابتسامة صفراء.

- شكرًا يا فندم.. ألف شكر.

قالها وانسحب خارجًا من المكتب وما أن أغلق الباب وراءه حتى تمتم في غل:

- جتك البلا في شكلك.

***

چورچ زامفير من جديد، ونغماته قد صار لها شكلا يناسب وحدتي وظلام روحي وصالة شقتي.. وقهري ودموعي، أُهنت أمام الجميع وأنا الذي عشت حياتي داخل الحائط كي لا ألفت نظر أحدهم إليّ.. نفسيتي شرخت بالطول والعرض ولم أعد قادرًا على إعادتها في صورتها الأولى، متذبذبة.. فقط متذبذبة لكنها غير مشروخة، وكأن لطخات الإهانة تسيل على جسدي لتغرق الأرض تحت قدمي.. أي أرض أطئها، رنين هاتفي يشق سكوني من جديد، هذه المرة كان الطالب صاحب الرقم الذي أضاء الشاشة هي شيراز، لم أستطع الإجابة.. وعجبت من نداء لن أجيبه وقد كان لي حلم أن أناديه أنا، مرات ومرات حتى سكنت رناتها المتتالية ليعقبه خلال ثوان اسم علي.. يا صاحبي لم أجب نداء جاءني من سماوات أحلامي، فهل أجيبك أنت؟! دفنت وجهي بين كفيّ ومن جديد شقّتني النهنهات.. دوار عصف برأسي وذل يسحقني كمدًا، أين أنت يا أبي.. ولو وجدت الآن رحم أمي

متاحًا لرجعت إليه بلا تردد وما خرجت منه أبد الدهر.. فقط لو أستطيع هذا، فقط لو... هبطت الكف على كتفي فانتفضت بهستيريا، أرتجف.. أرتجف وأمعن في إغلاق عيني كي لا أرى صاحب الكف التي ما زلت أشعر بها تزداد ثقلا، انتابتني رعشة رجتني من شعر رأسي حتى أخمص قدمي وأنا أستدير ببطء ورعب لأرى صاحب الكف.. لا زالت عيني مغلقة وبجهد جهيد أفتحها، هنا رأيته.. كان أبي.

جحظت عيناي في فزع ولم أستطع للفعل أو القول سبيلا، فغر فاهي رغمًا حتى سال لعابي على ذقني، تبسم أبي وثقب عيني بنظرته، ألم حارق في كتفي إثر اعتصار أصابعه له، ملامحه تتغير تدريجيًّا ومال رأسه على كتفه كما حاله حين مات وتركني.. وهنا صرخت صرخت صرخت.. فاختفى، صرير الباب اخترق طبلتيّ أذني.. أدركت قبل أن أرى أن هذا صوت باب غرفته بالذات.. جف حلقي وأنا أمعن النظر إلى ما وراء الباب.. الضوء لا يصل إلى وجه الراقد على الفراش ولكني عرفته، منامته والجريدة التي بين يديه أخبرتاني عنه، الضوء يظهر جسده حتى الصدر، مسلوب الإرادة كنت حين تقدمت نحوه.. نبضات قلبي تضرب أذناي من الداخل فيصير لها دوي فاق

صوت طلقات الغزو ودانات مدافعه.. أتقدم.. أتقدم.. ببطء أفعل.. أقترب.. صورته هكذا تكبر في عيني من جديد وكأنه مرة أخرى هو الذي يقترب، صرت بجواره.. رأسه يميل على كتفه الأيمن وعيناه مغلقتان وكأنه يموت مرة أخرى ويميتني معه، دموعي تتفجر.. جثوت بجوار فراشه على ركبتيّ، فجأة فتح عينه وأمسك بيدي.. فلتت مني صرخة ذعر حين ارتفعت دقات شديدة على باب شقتي.

***

واثقًا جدًّا.. وسيمًا جدًّا.. أنيقًا جدًّا، كان حازم يمشي في طرقات سيتي ستارز السابح في نهر من الأضواء والموسيقى وصخب رواده، كم من جميلة أوقفت حديثها مع من معها رجالا كانوا أو نساء لتتابعه بنظرها في اهتمام وغالبًا يكون هذا حال زميلاتها أيضًا، كان يعرف طريقه تحديدًا وهدفه واضحًا.. Miss Sixty، توقف للحظات مترقبًا المدخل ونظر إلى ساعته الأنيقة ماركة citizen، انتظر لثوان قبل أن تظهر شيراز خارجة وهي تحمل كيس مشترواتها الذي يحمل اللوجو الشهير، تقدم ووقف أمامها بالظبط فجفلت لثوان قبل أن تتأمله بانبهار:

- مش ممكن إيه ده؟

- مفاجأة حلوة ولا وحشة؟

- حلوة طبعًا وتجنن.. بس إيه ده كله.. ده انقلاب.

- طبعًا.

- لا ده مش من بره بس، إنما قولي (وعقدت حاجبيها مبتسمة في حركة فاتنة) عرفت منين إني هنا.. اوعى تقولي صدفة.

- أنا عارف كل حاجة إنتي بتحبيها.. وبتحبي تعمليها إمتى كمان.

- فزورة دي؟

- وراكي حاجة؟

- لأ

أمسك يدها ببساطة ليمشيا معًا.

- على فكرة وحشتيني.

همس بها في أذنها فضحكت مطوحة رأسها إلى الوراء.

- إنت طلعت مشكلة.

فاتنة هي مها، كانت فتنتها الأكثر فتكًا هو جسدها الناعم الملتف بعناية ربانية خلابة، نهداها كاملا الاستدارة، مرفوعان دون حاجة لحمالات صدر يتيحان لأي قطعة ملابس تلامسهما أن تجسم هذا السحر، ولا يتعارض هذا مع ليونة وطراوة تعد بلذة جبارة تغري أشد الرجال التزامًا، بطنها كظهرها ملساء في نعومة الحرير لا يوجد بها أي ترهلات تظهر حتى وإن انحنت بقوة، تنتهي بخصر رفيع يتعارض بانسجام مع ردفين مكتنزين متماسكين لهما حضور طاغٍ يثير الانبهار بجمال التناسق مع وركين ملتفين كأنهما نحتا بيد نحات إعجازي الموهبة يتبختران فوق ساقين هما المعنى الحقيقي للنعومة اللامعة ومصبوبتان فوق قدمين تنتهيان بأصابع دقيقة طُليت أظفارها بعناية بطلاء رخيص لم يفقدهم جمالا أو إثارة، أما عن ملامحها فقد حباها الله بعيون مرسومة واسعة برموش طويلة تتهدل عليها خصلات شعر متموجة بطبيعتها، وأنفها دقيق صغير لن تتوقف أمامه كثيرًا لأنك حتمًا ستركز على شفتاها المنفرجة قليلا والمنتفخة تلقائيًّا واعدة بقبلة ساخنة تسكر الحالم بها، لذلك نلتمس العذر لرمضان أبو حشيشة (هكذا لقبه في المنطقة وهو يعود لولعه المريض بسجائر الحشيش التي يبرع في لفها فتخرج من تحت يده وكأنها

سيجارة مكنة، بل ويقوم بلف السجائر لأصدقائه من الكييفة مقابل أن يشاركهم، وهناك أقاويل بأنه نال هذا اللقب في قسم الشرطة عندما أطلقه عليه شريف باشا الزيني رئيس المباحث، أبو حشيشة يفعل لك أي شيء مقابل الحشيش.. الحشيش هو خبزه وماؤه) وهو يتابع جارته (الوَتَكة) من نافذته القريبة جدًّا من نافذة غرفتها سائل اللعاب وتأثيرها البيولچي عليه واضح للعيان، وأفاق رمضان من أحلامه الجنسية العنيفة الأشبه بلقاء العمالقة وتصادم الشهب على شِبّاكها وهو ينغلق في عنف وضجة حتى كاد أن ينكسر زجاجه.

- يا بنت الوسخة!!

رددها بحنق وبصوت عالٍ وهو يبتلع ريقه بصوت مسموع، انهد على أرضية غرفته وكأن مشهدها وهي نائمة وقد انحسر قميص نومها عن معظم كنوزها كان هو الرابط بينه وبين مقدرته على الوقوف، أغمض عينه وامتدت يده لتنزل بنطاله ذا المطاط الرخو منتهي الصلاحية وعاد لأحلامه ممسكًا ما بين فخذيه بقوة.. لحظات وتدفقت شهوته لتنسكب على بلاط الغرفة القذر.

"بسم الله الرحمن الرحيم   إيه اللي اترزع ده يا مها؟

قالتها أمها وهي تهرع مفزوعة إلى غرفتها تجر جسدها المنهك الذي لا زال يحمل لمسات معالم جمال قديم لم ينطفئ كله بعد، وشفتيها التي ورَّثتهما لابنتها كاملتين غير منقوصتين.. واضح أنها كانت غارقة في غسيل الصحون حين أفزعها دوي غلق الشباك.

- الشّبَّاك!!

قالتها مها بقرف واضح.

- وتقفليه ليه.. الدنيا حر عليكِ يا بنتي، كده تتخنقي.

- أموت من الخنقة أحسن ما الكلاب اللي بره دول ياكلوني بعينهم اللي تتدب فيها رصاصة.

أسندت الأم فخذها على الفراش في نصف جلسة وقد بدا عليها الحرج:

- طب استهدي بالله.. معلش يا حبيبتي كنت عايزة أقولك على طلبات البيت، علينا وصلين نور وعايزة أجيب الدوا بتاعي.. كمان الخزين قرب يخلص.

- حاضر يا ماما.. حاضر.

- حضرلك الخير يا ضنايا.

قالتها وتحاملت على نفسها لتقف وهي تتأوه، مشت خطوات حتى توقفت عند باب الغرفة واستدارت دامعة:

- أنا عارفة أيه اللي تاعبك، والله يا بنتي لو بإيدي حاجة ماهتأخر.. من ساعة ما عيلة أبوكِ حرّمت عليه إنه يعرفنا وإحنا في الدنيا بطولنا، أنا عارفة إن العيشة مش عاجباكي.. الإيد قصيرة يا بنتي.

وانسابت دموعها، نظرت إليها مها بانكسار متسمرة للحظات قبل أن تجري إلى حضنها وتمسح دموعها بكفيها:

- حاضر يا حبيبتي ما تشليش هم.. كلها كام يوم ونقبض، بس ما تعيطيش بقى!!

- أنا نفسي أشوفك في بيتك متهنية.. نفسي ترتاحي.

نظرت إليها بامتنان وأحنت رأسها في قبلة طويلة ليد أمها وسط شهقات انفعال تركه حبس الدموع.

كـان رفعـت القـاضي (والـد مهـا) مـن أثريـاء المجتمـع، ومـن عائلـة أرسـتقراطية، وكانـت لـه نـزوات عديـدة، هـذا بجانـب أفكـاره المجنونـة وشطحاته الغريبة.. وقد كان سيد من ضمن هذه الشطحات، وهو زميل حانة حقيرة تعرَّفه بينما كان يجوب العالم السفلي في إحدى مغامراته غير معلومة السبب لذويه، والسبب أنه كان ملولا جدًّا من الجو الرسمي المحيط وإلزامات الإتيكيت، هكذا دخل الحي الفقير وجلس في حانته ليجد سيد، وقد تطورت صداقتهما إلى حد زيارة سيد هذا في شقته - وهي أشبه بعشة الدجاج- ليعثر على فاتنة عمره، سهير جارة سيد الشبيهة بفرس بري يأبى الانصياع، وقد تعددت المحاولات لإيقاعها في براثنه التي تنتهي دائمًا في الفراش، لاحقه الفشل وقد دفعه سيد دفعًا إلى الحل الوحيد -كي يضمن استمرار استنزاف جيوب رفعت لأطول فترة ممكنة- وهو الزواج.

- يا رفعت بيه، الناس دي ما حيلتهاش غير شرفها.. واللي ما يجبيهاش الشيطان يجيبها المأذون.

وكانت فضيحة كبرى، ابن الأكابر حط من شأن عائلته وتزوج واحدة من الأغيار.. طبقة العبيد الكادح، تزوجها ونهل من عسلها ودخل جنتها..

في النهاية مل ورحل طوعًا لأوامر العائلة المتأففة والصارمة.. رحل بعدما أسفر الزواج عن مها، وما ألقاه من مال أكلته الأيام والسنون أكلًا، وشبت مها لتتشكل في صورة أبهى من الفرس الأصلي (أمها)، بل وقد تركت لها الجينات لمسة أرستقراطية في تعاملها مع بيئتها، فنأت بنفسها عنهم وجاهدت مع الأم كي تنهي تعليمًا جامعيًّا في مسيرة كفاح وصبر تعرضت فيها لشتى أنواع التحرش والسخافة من قبل أصحاب العمل البسيط الذي التحقت بكثير منه كي تساعد نفسها على الهروب من هذه البيئة الموبوءة بإتمام تعليمها، وأمها لم تدخر جهدًا ولا صحة في سبيل ذلك، زميلتها الجامعية سها كانت لها صلة قرابة بمدير بنك استثماري وقد تحدد مستقبلها المهني من قبل سنة التخرج، والمفاجأة أن سها قد ظفرت بعريس مليونير، تدله في هواها وقرر اصطحابها معه للعيش في أوربا، هكذا أهدت فرصة العمر لزميلة الدراسة بترشيحها بديلًا عنها للعمل بالبنك، واستعدادًا لهذه المقابلة التي ستحدد مستقبلها أنفقت مها كل مدخراتها على ملابس تليق بهذا اللقاء الفارق، راجعت كل ما يمكن أن تسأل فيه خلال الإنترفيو وشحذت ذهنها -ولم تنسَ شحذ سلاحها الفتاك- وفي اليوم الموعود ذهبت لتقابل مدير البنك.. ياسين مدكور.

(٦)

بخطوات متشنجة كجسد مريض بالصرع اتجهت للباب، دوي الطرقات عليه لا زال يرج عالمي.. اختفى أبي إثر ضربات الطارق وبنفس متوجسة ومسحوقة ذعرًا امتدت يدي في حذر لتفتح للقادم:

- علي!

- إزيك يا رامي.. أحسن دلوقت؟

كان الأمر غير متوقع خاصة وأني لم أتلقَّ أية زيارة شخصية في شقتي من قبل، أفسحت له الطريق كي يدخل فدخل.. اقتدته إلى غرفة الأنتريه وأنا أسرق نظرة تجاه غرفة أبي وجلست قبالته:

- جبت العنوان منين؟

- شئون العاملين.

قالها ببساطة شديدة وأردف:

- أنا خدتلك أجازة أسبوع وده آخر اللي قدرت أعمله.

- وإنت بتعمل كده ليه؟

- حمار.

قالها بلهجة تقريرية كأن هذا شيء مفروغ منه، فابتسمت بافتعال محاولًا إخفاء رعشة يدي وراء ظهري، ولذت بالصمت، فاستطرد هو:

- في حياتنا بنقابل ناس ونعرفهم.. ناس بتروح وناس بتيجي، إنت الوحيد اللي جواه زي اللي براه، وبعدين يا أخي حبيت أطلع جدع معاك.. جرب يبقالك أصحاب، جرب تقرأ الناس عشان تعرف تتعامل معاهم.

زاغت نظراتي بينه وبين غرفة أبي في محاولة غير مجدية لإخفاء توتري وخوفي.

- أنا تعبت يا علي ومش قادر أفهم حد.

قلتها بعصبية شديدة فردّ بسرعة.

- حمار.

ذهلت لجرأته ولم أعرف بما أرد.

- وبعدين إيه الضلمة اللي إنت قاعد فيها دي؟

بثقة وقف ليضغط مفتاح المصباح الكهربائي فسطع الضوء ليغشي بصري فلم أتحمل وأغلقت عيني ألمًا.

- مال وشك أصفر كده ليه؟

نظرت إليه بارتباك بعدما فتحت عيني بصعوبة، نظراتي تفلت مني لا شعوريًّا تجاه حجرة أبي:

- لا أبدًا.. قلة نوم بس.

- قلة نوم؟ طيب هو إحنا هانقضيها كلام بس.. إنت معندكش شاي ولا إيه؟

ابتسمت برسمية واغتظت في نفسي من اقتحامه المفاجئ هذا لعالمي، كدت أن أطرده خاصة وأني متفكك كمزهرية عبث بها خرتيت وحالتي لا تسمح بأي شيء، ذهني معلق بين الوهم والواقع، فما حدث أفقدني مقاييس الإدراك، ولكني تمهلت، هو رغم كل شيء جاء هنا صانعًا شيئًا من أجلي، نهضت في تثاقل معتل متجهًا للمطبخ فاستوقفني فجأة ممسكًا بذراعي فانتفضت:

- بقولك إيه.. أنا هاشرَّبك الشاي في أحلى حتة في مصر.. ما لك يا رامي فيه إيه؟!

كان هذا آخر ما وعيته قبل أن أسقط مغشيًّا عليّ.

"هـا.. كويس دلوقت؟"، كنت وعلي جـالسين في إحـدى مقاهي وسط البلد، الهواء والصخب تدخلا ليعيدا إليّ صفاء ذهني بالتدريج، كنت في غاية الحرج مما حدث وقد حكى لي أنه أصيب بالفزع لرؤيتي وأنا أسقط أمامه كبالون مثقوب، على الفور مدَّدني على الأرض ورفع قدمي فوق وسادة أحضرها من غرفتي مع زجاجة one man show وجـدها على الكومود بجـوار الفـراش، عطري المفضل الذي عشقته بسبب أبي.. المهم أنه أفرغ نصفها على أنفي ورويدًا رويدًا بدأت أفيق، وبدأ الدم في العودة للسريان في عروقه على حد تعبيره، أجلسني ثم دخل للمطبخ ليذوِّب بعض السكر في كوب ماء وأسقانيه، لما أدركت ما حدث وتأكد هو من قدرتي على المشي عرض عليّ أن نأتي إلى هنا لأن "ما فيش حاجـة تضبط دماغك زي كوباية الشاي على قهوة في وسط البلد"، في سيارته غرقت برُبع وعي في دعاباته وثرثرته وتبخر الحديث بالكامل من ذهنـي، طلب مني أن نعـرج سـويًّا على مكتبة الشروق ليشتري كتابًا أو اثنين وقد انتظرته خارجها فقد كنت بحاجة لعبّ رئتاي بالهـواء، وخـرج بعـد عشر دقـائق تقريبًا وهو يحمـل كيسًا عليه لوجو الشروق وداخله بضعة كتب.

- الحمد لله أحسن.

قلتها بإعياء، فتأمل حالي بأسف.

- ما لك يا بني.. ليه دايمًا عايز تبقى لوحدك وما بتتكلمش؟!

- أنا أصلي مش بحب الزحمة.. ولا بحب أختلط بحد.

- اوعى تبص على الدنيا من خرم الباب.. عمرك ما هاتشوف حاجة كاملة أبدًا.. كل اللي هاتشوفه أجزاء لازم هاتديك انطباعات غلط، افتح الباب وخلي رؤيتك تساع الدنيا وما فيها.. عارف؟ أنا رأيي إن الإنسان خبرته في الدنيا دي بتيجي من حاجتين: الاحتكاك بالناس على كل شكل ولون والـ..

وأمسك كتاب ما بيده مضيفًا:

- والكتب.

تناولت كومة الكتب المرصوصة فوق بعضها على الكرسي بجواره لأتأمل عناوينها:

تحليل الشخصية المصرية.. الفيل الأزرق.. رُبع مواطن.. الموجز في التحليل النفسي.. الطب النفسي المعاصر.. أيه كل ده؟ واضح أنك بتحب علم النفس أكتر من الروايات؟!

- مهتم بيه.. مش بقولك لازم تقرأ الناس.

- وفهمت الدنيا؟

- يبقى مجنون اللي يقولك إنه فهم الدنيا دي.

زفرت بحرارة وفردت ظهري على ظهر مقعدي البلاستيكي وقلت:

- ما هو عشان كده مش عايز أتجنن.

نظر في عيني بقوة وحرك يديه في اتجاهين مختلفين كأنه يفتح شيئًا ما قائلا:

- افتح الباب يا رامي.. افتح الباب.

***

"أنا بحسد الكحل اللي كحَّل رموشك..

وأحمر شفايف اللي زيِّن شفايف..

دنا بحسد الليل اللي سهر عيونك.. وأحسد عيوني لما أكون يا حبيبتي شايفك..

دنا بحسد كل كلمة تسمعيها.. كل كلمة بتقوليها.. كل حاجة تحسي بيها.. عارفة ليه..

بحبك.. أحبك.. مش عارف قد إيه

انبعث صوت منير حالمًا من السماعات الكبيرة التي أوصلها علي للاب توب واسترخى على فراشه مفكرًا.. كان قلقه يتزايد على داليا، ناشرها سيء السمعة وهي لا تهتم إلا بمولودها الجديد- مجموعتها القصصية- غير عابئة بشيء آخر وكانت تقابل كل نوبات غيرته بعبارة حاسمة:

- أنا بعرف أوقف كل واحد عند حده، لازم تثق في شخصيتي، وبعدين اللي خلانا نواجه الرصاص والغاز في الميدان يخلينا نقدر نوّقف أي حد عند حده.

ابتسم وقد تذكر أجواء ميدان التحرير خلال ١٨ يومًا أطاحت بالنظام الفاسد، التقاها هناك لأول مرة وجذبت انتباهه بحماسها، وجرأتها المثيران للإعجاب، كانت لا تخشى شيئًا إلا خسارة قضية وطن خرجت لتدافع عنها بدمائها معرضة روحها للخطر، جازفت بجسدها ولم تعبأ بحالات التحرش التي يمكن أن تتعرض لها وما يتركه من علامات منحوتة للأبد على جدران نفسية ضحيته.. كانت كالفراشة بين الورد الذي تفتح في جناين مصر، تتطاير

هنا وهناك من أجل إسعاف المصابين ولا تهدأ أبدًا، ولما تعرض المستشفى الميداني للهجوم من قبل بعض البلطجية بمساعدة قوات الأمن وجد نفسه يندفع دفعًا لحمايتها وسحبها خارج نطاق الاشتباكات، وأخيرًا وجد فرصة للتعارف، كانا يفترشان الأرض يرتكنان إلى جدار ما على خلفية الصخب والضجيج والهتافات:

- اسمي علي السمري.. هاتلاقيني دايمًا جنبك.

- إنت جاي تاخد حقك ولا تقرأ فاتحة؟

انفجر ضاحكًا وتعجب من روح الدعابة لديها وسط هذا الجو المفعم برائحة الموت.. ولكنها لم تمهله، وقفت من جديد واندفعت نحو الصفوف الأمامية إلا أنها توقفت للحظات ناظرة له من وراء كتفها بنظرة فتنته وصاحت: اسمي داليا.. داليا نوري. وأكملت طريقها فابتسم وهمس لنفسه: نورتي الميدان.

بعد هذا تقابلا مرات عديدة، فكانت تتجه تلقائيًّا ناحيته، والغريب أن محادثتهما دائمًا ما كانت تنقطع بقنبلة غاز أو دوي الرصاصات فتفرقهم دوامات المتظاهرين وحين يلتقيا مجددًا يكملان ما كان يقال، وكأن شيئًا لم يحدث.. وعندما أعلن نائب الرئيس خطاب التنحي كانا من ضمن المحيطين

بحمدين صباحي، فهاجت الدنيا فرحًا بالنصر، وعانق الجميع بعضهم بهستيريا، وكان هو ممن حملوا حمدين على كتفه قبل أن ينزله الجمع معانقين مهنئين، فجرى إلى داليا، ووجد ابتسامتها تملأ وجهها، ابتسم لها فاندفعت إلى حضنه.. لف ذراعيه حول وسطها فحملها حملا، وأخذ يدور بها حول نفسه مرات عديدة مرددًا عبارات الحمد والشكر لله تعالى الذي كلل نضالهم بالنصر، أنزلها وأمسك بيدها فوجد وجنتيها مشربة بحمرة الخجل مما حدث وعينيها تلمعان تنسكب منهما الدموع، أمسك بيديها وهمس في أذنها:

- عارفة، نِفسي في إيه دلوقت حالًا؟

- إيه؟

- نِفسي حمدين يبقى رئيس.

تسمَّرت ملامحها في ذهول للحظات قبل أن تنفجر ضاحكة لرده الذي جاء عكس ما توقعته تمامًا.

بحبك.. أحبك.. مش عارف قد إيه"

أفاق من شروده على صوت منير فاتسعت ابتسامته، رفع رأسه متأملًا مكتبته العامرة وبوستر حمدين صباحي (واحد مننا) الذي احتفظ به حتى

الآن معلقًا على الجدار الأهم في غرفته (الجدار الذي يحتوي مكتبته) برغم وصول الإخوان المسلمين إلى سدة الحكم بعد فترة انتقالية أدار فيها المجلس العسكري شئون البلاد، تذكر مناقشاته معها فهي برادعاوية صميمة وهو ناصري، تأمل كتاب (سنوات الخداع) للدكتور البرادعي الذي أهدته إياه وامتدت يده ليتلقطه من وسط صفوف الكتب قبل أن يفر أوراقه ويتشمم رائحتها.. ردد وراء منير بخفوت باسم:

- مش عارف قد إيه.

(٧)

القارب يتأرجح بميوعة الجميلات في دلالهن، ينساب على سطح الماء المتدفق تحته، وبدا على خلفيته الطبيعية التي ترسم غروب الشمس في شجن كأحلام العذارى بفرسان الأحلام، بدت شيراز في هذا الجو الحالم مخطوفة بأمر كيوبيد.. شد وتر قوسه لآخره وأحكم التصويب إلى قلبها، وكان حازم ملائمًا تمامًا بوسامته الساطعة وجسده المشدود كموديل لإعلانات البرفيوم، وشعره الناعم المتطاير.

- أنا مش عارفة إيه خلاني آجي معاك هنا.. أول مرة ألاقي نفسي سايباني لحد.

- هو أنا أي حد؟! وبعدين إحنا هنا بأمر عنيكي.

ابتسمت: قولي بقى.. بتيجي هنا كتير؟

- مش دايمًا.. أنا أصلي ما بحبش أكون لوحدي.

- إنت! كده بقى إنت كل حاجة وعكسها بجد.. حيرتني.

أوصل سماعات الأذن إلى هاتفه وانتقى من ملفات الـ mp٣ أغنية ما، دس طرف السماعة في أذنه اليمنى واقترب برقة من أذنها اليسرى ليدس الطرف الثاني فيها ويلمس علامة التشغيل على الشاشة.

"وماله لو ليلة توهنا بعيد.. وسيبنا كل الناس..

أنا يا حبيبي حاسس بحب جديد.. ماليني ده الإحساس..

وأنا هنا جنبي أغلى الناس.. أنا جنبي أحلى الناس

كان صوت عمرو دياب المخملي يسري في جسدها فيترك رعشة لذيذة سيطرت عليها بإغلاق عينيها وميل رأسها إلى الوراء بقوة، مد حازم يده ليسند رأسها على ذراعه الذي تعمد وضعه بين رقبتها والحاجز الخشبي للقارب فاستكانت، اقترب ليلامس خدها بشفتيه فشدت جسدها كله ومدت يدها إلى وجهه في محاولة بدت متراخية لمنعه، وانتهت بملامسة رقيقة لوجنتيه.

"حبيبي المس إيديّا عشان أصدق اللي أنا فيه..

ياما كان نفسي أقابلك بقالي زمان.. وخلاص وهاحلم ليه..

مانا هنا جنبي أغلى الناس.. أنا جنبي أحلى الناس

أمسك حازم بكفها وقبّل باطنه كأنه يمتص شفتيها.. ندت عنها آهة خفيفة وسرت القشعريرة في جسدها، فتحت عينيها، ونظرت تجاهه وهمست:

- هتقولها إمتى؟

- الكلمة دي اتقالت بعدد العشاق.. واللي جوايا ليكي أغلى وأحلى.. خليني أقولهالك بطريقتي.

كانت ذائبة.. وكان عاشقًا، قرَّب وجهه من وجهها بشدة حتى لفحتها أنفاسه العطرة ومشى بأصابعه يتحسس رقبتها المرمرية، ضمها بحنان بالغ حتى التقت الشفتان: تسمحي لي؟ أغمضت من جديد ولم تستطع جوابًا فالتقم شفتها السفلى بين شفتيه.. وذوَّبها.. شرب من ريقها حتى ارتوى، وأسكرتها قبلته.. فتحت عينيها ببطء لتتأمله ذاهلة مما كان، فضم رأسها الصغير إلى صدره بقوة:

- ما بقاش ليَّا غيرك.. ملامحك وروحك وحتى نَفَسك بتنفسه ويحييني.. بعشق تفاصيلِك.

لف كفيه على رقبتها وغاص في عينيها وشفتيها بنظرته العاشقة.. دمعت عيناه فتألقت:

- أنا مش مصدق إنك معايا وبين إيديَّا.

وما لي غيرك.. ولولا حبك هاعيش لمين..

حبيبي جاية أجمل سنين.. وكل مدى تحلى الحياة"

***

زخات الماء الساخن تنساب فوق رأسي وأذنيّ فتعزلني عن الكون إلا من خريرها، استندت بكفي على رخام الجدار أسفل الدُّش، اهتاجت الأحداث في عقلي طاحنة له.. أدرك أن ما رأيته كان وهمًا بلون الواقع وتأثيراته، أفرك فروة رأسي كمزارع عكف على حرث أرضه، علّه يطرد ما انحشر به من أثار يومًا غشيمًا دهسه بلا هوادة، أفقت من أفكاري على ألم حارق يكوي كتفي الأيسر، خرجت ملسوعًا من تحت الشلال المنهمر وقد تراجع وعيي بضعة ساعات إلى الوراء.. مشيت إلى المرآة ووقفت مشلولًا للحظات، زاغت نظراتي أمام بخارها فمددت يدًا راجفة لأمسحه، ببطء.. ببطء يظهر انعكاسي.. بدوت كجثة تنتظر فقط أن يعلنوا أنها كذلك، أدرت ظهري لأستوضح أسفل كتفي الأيسر بملليمترات.. كانت أثار أصابع أبي تترك علامات غائرة في الجلد، ربما أمكنني أن أحدد أماكن العُقّل بوضوح! تناهى إلى سمعي صوت ضحكات طفل تبعه صوت أبي بضحكته المميزة، وقفت كل شعرة في جسدي تقريبًا ومشيت حثيثًا إلى مصدر الصوت.. صالة داري، كنت هناك! كنت هناك وأنا بعد في العاشرة من عمري جالسًا في حضن أبي يقرأ لي من مجلات ميكي، وقفت عاريًا من ملابسي وعقلي معًا، كانا (أنا وأبي) منسجمين تمامًا فيما يفعلانه كأني أنا الغير موجود.. تراجعت خطوات حتى

التصقت بالجدار فأحسست برودته وذرات ترابه تتلاحم مع ماء الدش المنساب على جسدي فتستحيل طينًا، عضضت أصابعي في محاولة لكتم صرخة كادت أن تفلت مني، هنا تنبه أبي إليّ فنظر تجاهي شذرًا وكأنه يحذرني أن أزعج طفله بوجودي! طفله الذي هو أنا.. طرت إلى غرفتي وحشرت جسدي المبلل حشرًا في أول قطع ثياب وجدتها يدي المحمومة بحثًا، وفررت من الشقة أمام نظرات أبي الحادة.

محرك السيارة اللعين لم يستجب بسهولة، زمجر معترضًا على إيقاظه من غفوته بعد تركه مستريحًا كل هذه المدة، لم أركب سيارتي منذ شهور.. وأخيرًا استجاب فانطلقت بها في ضوضاء أيقظت الحي كله تقريبًا، وبسرعة الهارب من كمين شرطة تنفيذ الأحكام، أذهلني تمكني التام من القيادة والذي لم أعتده، وربما كان للأدرينالين المتدفق في دمي دورًا رئيسيًّا في هذا، لم أعرف لي وجهة محددة فظللت ألفلف في ظلام الليل وشوارعه وأنا منسلخ العقل بأحجية ما رأيته، ظللت أردد لنفسي: أنت واهم.. أنت واهم، ربما رددتها على مدار ساعات، توقفت فجأة على جانب الطريق إثر رجفة تمكنت من أطرافي الأربع، بذلت جهدًا خارقًا كي أهدأ.. تنفست بعمق وأنا أفرد

ظهري على المقعد فاصطدمت بحاجز فراشي الخشبي! فجأة وجدت نفسي على فراشي وممدد الجسد، ألجمني الذهول وعجّن وعيي عجنًا، انتزعت نفسي من الفراش كمن ينتزع سيخًا حديديًّا من ثوب الصوف المبتل، فتحت نافذتي فانغرس شعاع الشمس في عيني وأحرقها ألـمًا، تدريجيًّا استعدت قدرتي على الرؤية فنظرت للشارع، رأيت سيارتي مركونة جوار البناية كما اعتدت أن أركنها!

(٨)

صوت اصطدام الملعقة بجوانب كوب الشاي الساخن أعادني للواقع بتأثيره المحبب للنفس، كنت وعلي جالسين بنفس المقهى - وهو المفضل لديه- بوسط البلد، خبط بالملعقة على حافة كوبه ثلاثًا علامة على انتهائه من التقليب، وهي عادة لها قوة التابو تغلغلت في الشعب المصري، قبلت دعوته الهاتفية للخروج والتقيته هنا.

- هنا بحس بروح البلد.. بمصريتي.

كالعادة كان يضع بجواره كتابًا أو اثنين، كتابان ظهرا كعبهما داخل كيس شفاف.. قلب الإخوان وسر المعبد للخِرباوي، لي زمن لم أنغمس فيه في قراءة كتاب ما باستثناء فر أوراق مجلاتي القديمة، الحق أنني مندهش من نفسي وقد بدأت في تقبل وجود علي في حياتي كصديق.. بررت لنفسي هذا بهشاشة روحي هذه الأيام مما جعلني ألجأ إلى أي كيان بشري ألتمس الأمان والدفء بصحبته، ولقد أحاط بي علي حتى خيل إليّ أنني لو فتحت باب الثلاجة لوجدته.

- بقيت بتقرأ عن الإخوان؟

- طبعًا مش هما اللي حاكمينك دلوقت؟ دنا كمان لسه مخلص كتاب الدعوة والداعية لحسن البنا نفسه.

- ووصلت ليه؟

- بعد ما اتمسمرت قدام الكتب ومسلسل الجماعة.. وما بين كتب مؤيدة وكتب معارضة وصلت لحقيقة واحدة.. ولا أي اندهاش.. بالبلدي كده العيب من أهل العيب ما يبقاش عيب.

- ليه بتقول كده؟ هما مش بيقولوا إنهم بتوع ربنا.

- يا عم إنت بتاكل من الكلام ده، دول بتوع الشيطان.. بص، تأمل سيرة البنا وإنت تعرف إنه كان عايز حاجة واحدة بس.. السيادة على الناس، وده جه من منطلق إنه كان شايف إنه الوحيد اللي فاهم الدين صح والباقي إسلامهم ناقص، خلي بالك هو كان ذكي جدًّا وصاحب كاريزما عالية، البنا كان بيكتب روايات وشعر، لكنه عرف إن مش ده الطريق اللي هايوصله للي هو عايزه.. فعمل إيه بقى؟

ندمت على ملحوظاتي العابرة لأنني أعلم أنه لن يسكت قبل أن يلقي محاضرة يمتلك فيها زمام الحديث وهو يعشق هذا، أنا فاقد لتوازني النفسي أصلا وغير

مستعد ولا مرحب على الإطلاق بالخوض في مثل هذا الحديث، ولكني تحرجت من مقاطعته أو إبداء عدم الاهتمام فهمهمت:

- همم؟

- حرق كل كتاباته وركز في الدعوة بس لأنه شاف إن اللي كاتبه ده مش هايوصله لأنه يكون ألفا، حسن البنا كان يبحث عن التميز.. هوب رفع راية الدين وفي المنطقة العربية كلها يا ريس لزِّق الدين في أي حاجة هاتمشي زي الحلاوة.. خلي بالك إنه متربي تربية دينية وعلى أمهات الكتب، وعلمه كان غزير فوقف على أرض صلبة، وابتدى يكونله مريدين ماشيين وراه في كل حتة.. الموضوع ده بدأ في الإسماعيلية وكانوا خمسة ستة بالكتير كلهم صنايعيّة وعُمَّال.. لموا بعضهم في يوم وراحوله عشان يأيدوه ويقدموا أي حاجة يطلبها ويكونوا رجالته، وكله في سبيل نصرة الإسلام، البنا في لحظة شغل دماغه الذري وطلب منهم البيعة.. السمع والطاعة في كل شيء.. المكره والمَنشط.. يعني في السهل والصعب.

برغم كل شيء بدأت أنجذب.. حين يتكلم علي لا بد أن تسمع، وهو قد التقط خيط أذني فأكمل بحماسة واستمتاع مع صوت رشفاته للشاي:

- وعنها يا معلم.. متتالية وفتحت إيديها ورجليها وكله باسم الدين ينضم ويبايعه، البنا الحقيقة بذل مجهودًا جبارًا لدرجة إنه لف على كل القرى المحيطة والبلاد المجاورة، تقريبًا أربعة آلاف قرية عشان ينشر دعوته.. كان في كل حتة يعيِّن له وكيل ينتقيه، المهم يكون ضامن منه السمع والطاعة.. نسيت أقولك بقى إنهم في البداية كانوا مجتمعين عشان يختاروا اسم ليهم فالبنا قال سهلة.. إحنا إخوان وبننصر الدين عشان مسلمين.. يبقى إحنا..

- الإخوان المسلمون.

رددتها على الفور فعدّل علي من جلسته منطلقًا في الكلام:

- ولما سألوه نناديلك بإيه قالهم: أنا برشد الناس للدين الحق.. ومن هنا جه لقب المرشد، فضيلة المرشد، النقلة الكبيرة بقى لما تم نقله من مدرسته - هو كان مدرس إبتدائي أصلًا- لمدرسة في القاهرة، كان فيه خلافات مع ناس من الجماعة نفسها بسبب فلوس التبرعات اللي كانت بتروح أول بأول لشعبة الإخوان في القاهرة، ودي كان بيديرها عبد الرحمن البنا أخوه الصغير.. وحصلت مشكلة كبيرة لأنهم اتهموه إنه أخد فلوس التبرعات

من الإسماعيلية عشان يخدم بيها شعبة القاهرة أو لنفسه، هو كان شايف إن فلوس الجماعة للجماعة في أي حتة لكنهم ما اقتنعوش وراحوا وراه لحد باب المدرسة وحاصروها، وهنا خرج البنا في حراسة عدد من فتوات الجماعة وطحنوهم يا معلم.. رجعوا الإسماعيلية مربطين، ودي كانت أول حادثة عنف في تاريخ الجماعة.

توقف علي للحظات وهو يتأمل ذهولي مستمتعًا، أنهى كوبه فتنبهت أخيرًا إلى أنني لم أمس كوبي بعد، تحسسته فوجدته قد برد تمامًا فتركته كما هو وكان علي قد انسجم ولعلع حتى أن الجلوس من حولنا لم يعد يصدر عنهم ضوضاؤهم المعتادة وألقوا آذانهم على مائدتنا فأردف:

- المهم.. الجماعة انتشرت زي الطاعون في كل حتة في البلد؛ ولأن البنا كان فاهم إمتى بالظبط ياخد خطوة بدأ يدرس كتبًا عن التنظيمات الشيوعية السرية في كل حتة في العالم، أخدها وعملّها عملية أخونة، يعني فصّلها كده على مقاس الجماعة والدين، فكان لازم يكونله جيش سري مخفي تحت جيش شرعي اللي هو فرق الجوالة، ده غير إنه كان فاهم كويس أوي خطورة البوق الإعلامي، وقتها كانت الجرائد والمجلات الأهم على الإطلاق والأكثر تأثيرًا.. افتتح

مجلة، وأنشأ تنظيمًا خاصًّا ما حدش عرف عنه حاجة وقتها إلا خاصة الخاصة وإبتدى يدربهم على إيد متخصصين وجابلهم سلاح.. بالتدريج الجماعة بقى عندها جيش يتخاف منه، كان أسند التنظيم ده لشاب مندفع وعدواني الطبع اسمه عبد الرحمن السندي، وكان من ضمن الناس دي مصطفى مشهور، وده بقى مرشد بعد كده، وهنا الجماعة تحولت من جماعة دينية إلى جماعة سياسية منظمة، وبدءوا يلعبوا سياسة، ودي كانت بداية خوض معركة الانتخابات، لولا النحاس باشا رئيس الوزارة وقتها هو اللي وقّفهم عند حدهم وقال: سياسة لأ، فكرك البنا خرج من اللقاء ده خسران؟ لا ده في ثانية طلب مقابل للتنازل عن الترشح، تسهيلات تتيح له الانتشار أكتر.. وحصل، وكانت غلطة عمر النحاس لأن الجماعة تضاعف انتشارها تقريبًا وسيطرتها على العقول بالسمع والطاعة، والتنظيم الخاص كان مسؤولا عن تفجيرات لمحلات اليهود - واللي كان بيموت فيها مصريون- وعمليات اغتيال لكل اللي ما يعجبش حسن البنا أو اللي الجماعة تشوفه ضد الإسلام الحق، اللي هو مقتصر على الإخوان بس طبعًا، كانت أشهرها عملية اغتيال القاضي الخزندار والنقراشي باشا رئيس الوزراء اللي حل الجماعة واعتقل معظم أفراد التنظيم

الخاص، وكمان معظم الإخوان؛ لأنه أدرك خطورتها، وكان لابد من كسر شوكة البنا، بعدها حسن البنا باس رجلين الكبير والصغير عشان الجماعة ترجع ويفرجوا عن المعتقلين، وكان بيقول إن كل العمليات دي اتنفذت بغير علمه، وإن التنظيم الخاص عياره فلت، وهنا كتب بيانًا في كل الجرايد على رأسها جرائد ومجلات الإخوان يتبرأ فيها من جرائم التنظيم الخاص وقال جملته الشهيرة جدًّا: "ليسوا إخوان.. وليسوا مسلمين"، والغريب أن البنا كان حاطط خطة مستقبلية للجماعة على مدى ثلاثة أجيال.

وفرد أصابعه واحدًا تلو الآخر مع العد:

- جيل السمع والطاعة.. جيل التنفيذ.. جيل جني الثمار، وحصل.. دلوقتي أهم مسكوا البلد وكل سنة وإنت طيب.. عليه العوض في دم الشهداء والبلد كلها، من الآخر كده حسن البنا بالنسبالي بلخصه في كلمتين.. راسبوتين أو حسن الصبَّاح.

ابتسمت برغمي وأنا أتذكر ما حكاه لي أبي عن حسن الصباح زعيم الحشاشين، والذي كان يزعم أنه يمتلك مفاتيح الجنة والنار، وكان يسيطر على

أتباعه بدخان الحشيش، حتى إنه كان يدخلهم مساطيل في بستان ما أعد خصيصًا ليكون أشبه بالوصف القرآني للجانب الدنيوي المفهوم من الجنة، أشجار وماء عذب وحور عين جميلات، كان الصبَّاح يريهم كيف أنه يأمر الشمس فتسطع في ظلمات الليل.. والحقيقة أن هذه الشمس لم تكن سوى برميل مفرَّغ من الجانبين أضرمت بداخله النيران ويتم تحريكه بالحبال ليرتفع وسط الجبال فيهيأ للناظر المغيب بالحشيش أن الأمر حقيقي، عندها يخضعون لدرجة أنه لو أمر أحدهم بأن يقتل نفسه لفعل دون مناقشة.

- إنت عيل ابن قحبة، أمك زانية فيك.

انطلقت هذه الجملة الشاذة بحرقة من أحد الشباب الجالسين على مائدة قريبة، كان يقصد بها علي طبعًا، ومن الواضح أن الشاب متحمس جدًّا للإخوان أو أنه إخواني، وتكهرب الجو لثوانٍ قبل أن يتبرع العشرات بالرد على الإخواني وترددت كثيرًا لفظة: "خروف"، فوقف الشاب على مائدته صائحًا وعروق رقبته تكاد أن تنفجر:

- الإخوان أسيادكم غصب عنكم، ولو مشي مرسي هانجيب لكم حازم أو خيرت، وما حدش هايقدر يفتح بقه يا ولاد الشراميط يا أنجاس.. ومصر هاتفضل إسلامية يا كفرة يا معرصين.

تدافعت الأيدي للفتك به، ولكن أصدقاءه أحاطوه لحمايته من الغضب الذي أشعلته كلماته والذي لو طاله لمزقه إربًا.. هنا حدث آخر ما كنت أتوقعه على الإطلاق.

(٩)

كان صوت فيروز ينساب في هواء حجرتها، تعِد حبيبها بأنها ستزيِّن له الريح حين يأتي غدًا، وستصنع من الشمس مرآة فتصيح الكناري مبتهجة، تمددت داليا نوري على بطنها فوق الفراش محدقة بشاشة اللاب توب التي تُظهر صفحة تنسيق رسالة جديدة على مدونتها، نقرت كلماتها على لوحة المفاتيح لتطير حروفها فرحًا وهي تعلن لقرائها -المحدودين- عن صدور كتابها الأول أخيرًا، أنهت البوست بعبارة: "إنت هنا.. وحلمك فوق وبعيد، وصَّل خط بينك وبينه وارسمه خطوات.. حط رجلك على أول خطوة وإمشي، مش مهم تمشي بسرعة، المهم تمشي لقُدَّام

اعتدلت متربعة بعدما قامت بمراجعة سريعة للموضوع ولم تنسَ إضافة صورة للغلاف، ضغطت زر نشر وانتظرت حتى تمت العملية، فأغلقت الصفحة وفتحت المدونة ثانيةً لتراها بمنظور الزائر الذي سيدخل ليجد الموضوع الجديد كعادتها، انبعثت نغمة تنبيه رسائل facebook فأدركتْ أنها تركت اسمها online في tab نسيت أنه مفتوح، "إزيك يا داليا"، كانت هذه الرسالة من ياسر

همام، ظهرت في مربع الحوار بجوار صورته التي اتخذ فيها وضع المفكر بإسناد ذقنه إلى قبضة يده راسمًا نظرة شرود عميقة وكأنه دوستويفسكي زمانه، لوَّت جانب فمها الأيسر في تهكم إثر قراءتها لرسالته وكتبت بسرعة: "الحمد لله"، هي تعرف أسلوبه في محاصرة الكاتبات وابتزاز مشاعرهن بحلم الشهرة والنجاح، دعك من تيمة لا أحد يفهمني في هذا العالم الجاهل التي يتلقاها بين أنامله بحنكة وصبر، فيأخذ دور الصدر الحنون المتفهم لمشاعر الأنثى التي لا تقدَّر بثمن، والتي لا تستحق سوى رجل مثله عزم على الوقوف بجانبها حتى تحقق حلمها، وهو تحت الطلب طبعًا في التواجد كفارس أحلام يرسم بكلماته عالمًا رومانسيًّا طالما حلمن به، "مبروك على كتابك يا جميل.. عارفة.. ضحكتك وسعادتك دي أحلى حاجة حصلتلي"، تأففت نافخة زفيرًا حارًّا قبل أن تكتب بضيق صدر: "متشكرة.. بس سعادتي دي حصلتلي أنا"، وجاء الرد سريعًا: "فيه ناس من أول ما تقابليها تحسي إنك عايزة تفرَّحيها بأي شكل وإنهم مسؤوليتك.. وأنا حصلي كده معك، كمان إنتي موهوبة وأنا متأكد إنك هاتكوني يومًا ما على القمة"، "ميرسي.. معلش لازم أقفل حالًا" كتبت جملتها وأغلقت صفحة facebook فورًا قبل أن تزيح اللاب بالكامل جانبًا، تمتمت بحُنق: فصيل، هي لا تريد إخبار

علي بمحاولاته السخيفة لسببين، الأول: أن علي مهما بدا متعقلًا ومثقفًا إلا أنه يتحول إلى كارثة هوجاء بسبب غيرته، فهو يهيم بكل تفصيلة فيها ومنها، زد على هذا أنه لا يطيق ياسر همام أصلا، ويتصيد له مجرد النظرة، وتذكرت كيف اكفهر وجهه حين أخبرته باسم الدار التي وقعت معها عقد كتابها الأول -كانت قد أخفت الموضوع لتفاجئه- وكم قضى معها من ساعات بح صوته فيها وهو يحكي لها عن فضائحه المعروفة لأصغر كاتب في الوسط، فضائح جنسية عديدة لم يدخر فيها وسيلة بداية من الهاتف ومرورًا بمكالمات الفيديو على Skype وحتى اللقاءات الحقيقية التي تتم غالبًا في مكتبه، أخبرها أنه في حفل توقيعها بالذات كان هناك ثلاث كاتبات جالسات كلهن على ذمته العاطفية والجنسية، وكل منهن تظن أنها الوحيدة.. الأدهى أن من بينهن متزوجات، وفضائح أخرى متعلقة بذمته المالية فهو نصاب كثرت ضحاياه وتعددوا، أكد أنه استقى معلوماته- بجانب أن الكل يعلمها فهي الوحيدة البلهاء هنا - من كاتبة صديقة فلتت من شباكه بأعجوبة.. أو أنها لم تفلت! السبب الثاني: أنها تثق تمام الثقة في شخصيتها وقدرتها على بتر محاولاته وإجباره على احترامها، فضحاياه مسؤولات عن تورطهن معه بل وتراهن منحرفات معدومي الشرف أصلًا، ابتسمت في ثقة عند

بلوغها هذا الحد من الأفكار واستحضرت في ذهنها أيام تعرفها بعلي وضحكاته العذبة المقهقهة حين علم أن أكثر ما أحنقها من الثورة هو إلغاء معرض الكتاب، غلبها الحنين حين تذكرت (مرمطته) وراءها في جميع الأحداث التي كانت وقتها حديث الصحف ووكالات الأنباء، ثم نسيها الكل بعد ذلك بواقعة جديدة تسطر في تاريخ هذا البلد البائس، ماسبيرو.. محمد محمود.. العباسية.. قصر الاتحادية وجبنة نستو يا معفنيييين، وعدد لا نهائي من الجُمع والمليونيات، وهذا بخلاف اشتباكاتها الكلامية المتنوعة -باعتبارها عضوًا مؤسسًا لحزب الدستور- في عربات المترو المخصصة للسيدات مع منتميات لتيارات إسلامية، تسميها متأسلمة، وعادة ما تكون هذه المشادات مع منتقبات غطين أجسادهن ولم يسترن ألسنتهن التي يُجدن استخدامها في استعمال قاموس بارع في الشتائم الجنسية، أو في أماكن عامة كالندوات، وكانت أسخن مشادة قد حدثت بينها وبين أحد شباب الجماعة في ندوة بمعرض الكتاب للشاعر جمال بخيت يناقش فيها ديوانه "دين أبوهم"، وعلي وراءها لا يهدأ ولا يكل من حمايتها والدفاع عنها وقت الحاجة.. والحقيقة أنها تربت في بيت ناصري مما أدخل علي قلب أبيها فورًا ودون نقاش، أما هي فقد فتنتها شخصية البرادعي من الوهلة الأولى، وتراه رجلا سبقنا

عقله بعدة سنوات ضوئية كاملة، ولم يتعارض هذا مع ميول وآراء أبيها السياسية، فهو مهندس عمل بيده في مشروع القرن الذي أنشئ في عهد زعيم الأمة على حد قول أبيها.. السد العالي، بل إنه يعلق صورة كبيرة تجمعه بعبد الناصر في صالة الدار ولا يخفي فخره بها على أحد، كان يصف علاقة التيار الناصري بالدستوريين بأنها مكملة لبعضها في مواجهة الخطر الحقيقي على هذا البلد، بل وعلى وسطية مصر في إسلامها.. كانت تقرأ كدودة لا تشبع أبدًا وقد نشأت على كتابات نبيل فاروق وأحمد خالد توفيق قبل أن تفتح الباب على استحياء لمصطفى محمود وأنيس منصور ليتدفق بعد ذلك إلى عالمها روائع الأدب العالمي لـ (چول فيرن) و(ديكنز) و(دوماس وويلز) و(مارك توين)، نضجت فرحبت بعلاء الأسواني ويوسف زيدان ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وتشيكوف ودان براون والعم بهاء طاهر والخال الأبنودي.. جلال أمين وإبراهيم عيسى وهيكل، ثم انحازت بقوة إلى جانب كُتاب جيلها.. بلال فضل وعمر طاهر وأحمد مراد، وبالطبع ذابت عشقًا في رضوى عاشور وغادة السمان وأحلام مستغانمي وإليزابيث جيلبرت وفاطمة ناعوت.. الخلاصة أن حياة داليا نوري تقرأ ولا تعاش.. ولا زالت فيروز تعد حبيبها.

انبعث اللهب محيطًا بشعلة البوتجاز تحت براد الشاي، وأصدر هسيسًا خافتًا جعل حواس شيراز تنتبه للون الأزرق المشتعل وتستغرق في الشرود للحظات غابت فيها عن العالم، أفاقت على يد أبيها التي لامست كتفها برفق فابتسمت: أعملك شاي معايا يا بابا؟ يُمسك بريموت التلفزيون، كان يتابع فيلم (إشاعة حبّ) الذي يعشقه على (روتانا زمان)، ويبدو أنه استغل أول فاصل قطع العرض ليلقي نظرة اطمئنان عليها.

- لأ بلاش عشان أعرف أنام، أقولك.. اعمليلي ينسون.

- إمممم.. كده هاضطر أشربه كشري.

انشغلت لثوانٍ في تلقيم الأكواب وهو يتابع صغيرته، وستظل كذلك مهما كبرت، وتذكر كيف كانت لا ترضى إلا وأن تُحمل على كتف أمها حتى ولو كانت الأخيرة منشغلة وغارقة في أعمال الطبخ.

- هو إنتي مش ناوية تخليني أسمع حد بيناديني جدو؟

- وبعدين معاك يا عم مصطفى!

قالتها مداعبة بنظرة خبث طفولي زاد عشقه لإبنته وفخره بها.

- يا بنتي أنا عايز أطمن عليكِ قبل ما أموت.

قالها راسمًا ملامح متأثرة، شدت خده كأنها تلاعب طفلًا تنصحه بأن يكف عن شقاوته المعهودة:

- fake أوي الأداء ده.. وقديم خاااالص يا بطاطا.

علت ضحكته: هو ياسين لسه بيكلمك في الجواز؟

- واجهته برأيي ولسه مُصِر.

سألها بحنان أبوي ماكر: طب وأخبار قلبك إنتي إيه؟

كان الماء قد وصل لدرجة الغليان فتناولت البراد من مقبضه الخشبي وأخذت في ملء الكوبين بلونيهما المتباينين، وأجابت مرتبكة بخجل:

- مش عارفة يا بابا.. ممكن يكون فيه حاجة حلوة قريب، لسه.

قبَّلها على خدها: خلي بالك من نفسك يا حبيبتي.

- ما تخافش على بنتك.

- ماشي يا شيري.. هاروح أكمل الفيلم وبعدين أنام.. هاتدخلي أوضتك كالعادة طبعًا.

ابتسمت له قبل أن تحمل كوبها وتذهب لغرفتها، أغلقت الباب ومشت بإصبعها على مربع اللمس أسفل لوحة مفاتيح اللاب توب فتلاشت الأسماك على الشاشة لتعود واجهة موقع فيس بوك، ضغطت أيقونة برنامج jet audio وانتقت عشوائيًّا إحدى الأغنيات من قائمة التشغيل فجاء صوت جنات على الفور.. حبيبي على نياته.. كل البنات إخواته.. ده ماكنش كده بس أنا.. غيرت كل حياته"، ابتسمتْ بجذل ورمت نفسها ممددة على الفراش بعد أن شبَّكت أصابعها خلف رأسها.. وتنهدتْ بحرارة.

(١٠)

كانـت صـيحات رواد المقهـى تتعـالى طالبـة الرحمة للشـاب الإخـواني، صيحات ومحاولات جدية لحمايته قام بها الشباب الغاضب عليه والذي كان ينوي تمزيقه بنفسه! ما حدث أنني اندفعت فجأة نحو مائدته الواقف عليها محتميًا بدائرة من أصحابه، وقفزت في الهواء وأنا أمد ذراعيّ ممسكًا برقبته فاقتلعته من مكانه لألقيه على الأرض بعنف حتى أنه زحف على الأسفلت لثلاثة أمتار كاملة محطمًا مائدة بالأكواب عليها، هاجمني صديقان له فأمسكت برقبتيهما لأرزع الرأسين ببعضهما في قوة فانفجرت نافورة الدم، جريت إلى الملقى أرضًا ووجهت ركلات عاتية الغضب لبطنه وضلوعه قبل أن أركبه – بالمعنى الحرفي للكلمة– وأغيِّر له ملامحه بلكمات شرسة أفقدته وعيه.. كان الجمع قد تسمر ما بين مذهول وخائف من جنونتي التي لبستني وسرت في عروقي، كان أول من استعاد رباطة جأشه هو علي.. ألقى بنفسه عليَّ وأحاط ذراعيّ ووسطي بيديه في قوة صارخًا:

- خلاص يا رامي.. خلاص يا رامي.. خلاص يا رامي.. خلاص يا رامي، الراجل هايموووووووووووووت.

نظرت إليه فبدا عليه الفزع.. شهق بعنف قبل أن يشبّك قبضتيه ويؤرجحهما في الهواء بقوة، وهوى بهما على فكي بعنف.. وتسيَّد الظلام على حواسي.

صوت محرك سيارة علي شق سكون ليل الحي الهادئ الذي أقطن فيه، منذ أن أفقت ولم ننطق بكلمة.. لو استطعنا التوقف عن التنفس لفعلنا، كان قميصي ملوثًا بالدم وكذلك علي لم ينجُ تمامًا من قطرات قليلة طالته من المعركة، لازمني ألم لكمته، ولكن ما شج رأسي هو الصداع الطاحن لعظام مؤخرة جمجمتي، صعدنا إلى شقتي وكان علي يمد يده من وقت لآخر في محاولة بسيطة لإسنادي وتخوفًا من أن أسقط فاقد الوعي في أية لحظة.. انتهت الحادثة بفقداني لوعيي بالضربة القاضية، وحَمَل ضحيتي أصدقاؤه وانصرفوا يلملموا جراحهم بعدما أحاط بي الشباب لحمايتي منهم، حدث كثير من الجعجعة انتهت إلى لا شيء كمعظم الأحداث الحاصلة مؤخرًا في مصر.. دلفنا إلى الصالة فارتميت على أول مقعد وجدته وجلس علي أمامي يتفحصني بنظراته، تاهت حاسة النظر ما بين السكون واستعادة ما حدث في ذاكرتي، كنت وقتها كالمنزلق على منحدر شديد أحس بها يحدث ولكنني لا أستطيع إيقافه، قوة غاشمة وغاضبة فارت في عروقي وتوجهت لتنفجر في وجه الشاب المسكين.. نظرات علي كانت ما بين خائفة ومرتابة.

- إنت كويس؟

نطقها بصوت راجف.. لم أستطع ردًّا، عصرتني أحجية التفت حول حياتي مؤخرًا لتزيدها شقاءً وتخبط، تحسست فكي متأوهًا بخفوت، فقال علي في سخرية محاولًا تبديد جو التوتر:

- إيه يا بني اللي إنت عملته ده.. فجأة بقيت عامل زي الرجل الأخضر، دا إنت كان ناقص تطلّع نار، لو كنت سيبتك كنت موِّته.. كان لازم أعمل كده، أنا آسف.

هنا لم أستطع التماسك أكثر.. دفنت وجهي بين كفيّ وأجهشت ببكاء مكتوم، ماذا يحدث لي! لم يعلق علي ولم يحاول تهدئتي.. ذهب إلى المطبخ وعاد بكوب ماء بارد وضعه في يدي فظللت ممسكًا به ولم أرتشف منه قطرة واحدة.. فقط شردتْ دموعي في قطراته قليلًا، ثم وضعت سطحه البارد على وجهي ليلامس مكان ضربة علي الموجعة، ببطء رفعت رأسي تجاه علي الواقف أمامي.. أخيرًا نطقتُ.

- أنا بيحصلي حاجات غريبة أوي.

***

"اضطرابات نفسية.. واحد بالماضي ده لازم يحصله اضطرابات نفسية، ببساطة العقل الباطن رافض فكرة عدم وجود الأب

كانت هناك صورة عملاقة لـ(فرويد) معلقة وراء مكتب الدكتور حسن الجمّال أخصائي الطب النفسي، نطق جملته فتطاير دخان سيجارته في هواء الحجرة، علي لم يكن يطيق الدخان لكنه ابتلع تأففه احترامًا.

- وده يوصله لفقدان ذاكرة هستيري؟

- ده تشخيص غلط، فقدان الذاكرة الهستيري يتسبب في نسيان المريض لحادثة مؤلمة في حياته، الموقف هنا صدام ما بين الواقع والرفض، لو نسي موت والده الواقع بيفرض عدم وجوده أصلا.. أنت قُلت لي صاحبك، قريب منك يعني؟

- أيوه.

- فقدان ذاكرة انشقاقي، بيحصل في لحظات معينة، قلق ما بعد حدوث صدمات PTSD، لحظات بيكون فيها في أشد احتياجه لوالده.. خصوصًا إنك قلت لي إنه متحفظ جدًّا ومش قادر يتعامل مع البيئة المحيطة.

- طب والحاجات اللي بيشوفها زي والده أو بيشوف نفسه وهو صغير؟

- هلاوس نتيجة لرفض العقل الباطن التكيف مع الوضع الحالي، الغريبة إنه فاكر الهلاوس نفسها (موضوع الصدمة)، ونسي اللي حصل بعدها، عادة مريض الهلاوس بيكون عارف إن اللي بيشوفه وهم.. الخوف إنها تتطور لضلالات يقتنع بيها تمامًا.

- يعني إحنا هنا بنتعامل مع عُصاب؟

ابتسم الدكتور حسن لحشر علي لمصطلحات طبية في الحديث كي يثبت ثقافته.

- بالظبط كده.. عُصاب مش ذُهان، بس خلي بالك.. فقدان الذاكرة الانشقاقي ممكن يمتد تأثيره على سنوات كاملة مش فترة قصيرة بس، يعني مثلا ممكن المريض ينسى إنه اتجوز وخلف، يعمل شيفت ديليت لآخر عشر سنوات.. يعني الخط اللي ما بين العُصاب والذُّهان عنده واهٍ جدًّا.

- يا نهار أسود.

اكفهر وجه علي وهو ينطقها، خرجت من حنجرته كُحَّة متحشرجة قبل أن يبتلع ريقه ويحكي ببطء ما حدث في المقهى، وأطرق الدكتور حسن مصغيًا ومحدقًا في نقوش سيراميك أرضية الحجرة وهو يسند خدّه إلى إصبعيه الوسطى والسبابة.. علق حسن:

- ودي كانت أول مرة؟

- أيوه.. ده أصلًا مش بيعرف يرد على حد بيزعق فيه، رد فعله لا يخرج عن حاجتين.. البكاء أو الانسحاب من قدام اللي بيهاجمه.

- صاحبك ده متعصب لفكر سياسي معين؟

- خالص.. ده متقوقع، يمكن يكون مش واخد باله أصلًا من إن الإخوان بيحكموا.

ابتسم حسن:

- كبت.. ببساطة هو كان شايف في الشاب ده كل حاجة شريرة عدت عليه فانفجر.

- لا يا دكتور.. ده كأنه فجأة بقى واحد تاني، حتى نظرة عينيه وملامحه اتغيروا.

رفع حسن حاجبيه حائرًا، أسند كوعيه إلى المكتب وشبك أصابعه مسندًا ذقنه إلى إبهاميه متمتمًا بشرود:

- غريب.. غريب.

تنهد علي بحرارة يائسة:

- والحل؟

اعتدل حسن وخبط على سطح المكتب برفق:

- مبدئيًّا.. عايز أشوفه وهو في الغالب هايرفض ويحس بخوف من الطب النفسي، عمومًا حاول تخليه يحس بإيجابيته في أي شيء حتي لو كان بسيط.. لازم يواجه الواقع، يندمج مع المجتمع.

- بشكرك يا دكتور.. ألف شكر.

قالها علي مصافحًا حسن بحرارة واستدار منصرفًا.

- علي.

استوقفه نداء الدكتور حسن فالتفت إليه، قال حسن بابتسامة:

- ما فكرتش إن ممكن يكون صاحبك ده أصلًا ما نزلش من بيته يومها.. ولا رِكِب العربية أساسًا؟!

(١١)

- حاجة تانية يا أستاذ ياسين؟

قالتها شيراز وهي تضع دوسيهًا على سطح مكتبه، هذه المرة لم ترجع يدها بقلبه، بل دهسته بقالب طوب وضعته لتبني جدارًا عازلًا بينها وبينه.

يائس وبائس كان حال مشاعره نحوها في تلك اللحظة: إنتي لسه زعلانة مني؟

- لو سمحت يا أستاذ ياسين نتكلم في الشغل وبس.

انفعل: أنا ماستحملتش إن حد حتى يبصلك، إنما ده بيديكي وردة وعامل فيها عبد الحليم.. إنتي مش عارفة أنا بأغير عليكِ أد أيه؟!

ردت بحسم: أستاذ ياسين.. بعد إذنك الموضوع ده انتهى، وعشان خاطر ترتاح ما فيش أي حاجة بينى وبينه.. أنا هنا بشتغل وبس.. بعد إذنك.

خرجت مسرعة قبل أن يدخل غريمه المزعوم بعدها بدقائق.

"حمدا لله ع السلامة يا أستاذ، لو كنت اتأخرت يوم واحد عن أجازتك كنت عرَّفتك شغلك.. اتفضل .

أخيرًا: نطقها ياسين بعدما تركني واقفًا أمامه لعشر. دقائق كاملة، تظاهر بمراجعة أوراق على مكتبه وبيانات ما على شاشة الـ i pad، كانت ملامحه تحمل كتمانًا واضحًا لغيظ لم أفهمه، لم أنطق بحرف وإنما اكتفيت بثقب ملامحه بنظراتي التي لم يرها، انفرج ثغري عن ابتسامة فاترة واستدرت دون تعليق على جملته خارجًا من المكتب وواصلت طريقي لبلوك مكاتبنا.

- نورت يا روميو.. والله يا عم ليك وحشة.

قالها علي بمرح وهو يفتح ذراعيه في حركة تمثيلية ضاحكة، عانقته مبتسمًا لرد فعله، اقتربت مني مها حتى كادت أن تلتصق بي وداعبت جبهتي بيدها:

- ولا يهمك يا رامي.. إحنا معاك بس فِك الميه وحداشر (١١١) دي!!

لمسة من يد أنثى مثل مها لا تمر مرور الكرام أبدًا، سرت قشعريرة بجسدي كله وأغمضت عيني لثانية، نظرت نحو شيراز فوجدت ملامحها تتغير إلى الضيق إثر حركة مها! لم أعرف بما أرد ولا ماذا أفعل فتمتمتُ:

- معلش.. غصب عني يا جماعة والله.. أنا ظروفي الأيام دي صعبة أوي.

- المهم أنك رجعت الشغل وسيبك من أي حاجة.

قالتها شيراز وهي تنظر بحدة لمها، وقال علي:

- بكرة إن شاء الله هاعدي عليك بالليل نخرج.. ماشي؟

- طب ما تخليها النهارده.

- لا يا معلم.. النهارده عندي مشوار مصيري، ثم ضحك وأعلن في فرح:

- يا جماعة، أنا قريب إن شاء الله هأعزمكم على خطوبتي.

تهللوا وعلقت شيراز: بجد.. مبروك يا علي، وقالت مها مداعبة:

- أمها داعية عليها.

- بكرة نشوف عريسك شكله إيه.

كان علي ومها يتبادلان الدعابات في حين اقتربت مني شيراز هامسة وهي تداعب يدي في الخفاء بوردتي الورقية:

- على فكرة وحشتني.

أصابني ارتباك ورجفة، احمرّ لوني واصفر.. احتفظت بوردتي، هي تضايقت لمداعبة مها وملامستها، صبرًا أيها القلب لربما كنت واهمًا، عند هذه

النقطة استعادت ذاكرتي الأحداث الأواخر فتجهمتُ، لكني ظللت أتشبث بأن ما سمعته حقيقي، لم أستطع أن أرد بشيء فهربت إلى مكتبي، داريت حالي خلف جملتي المهنئة لعلي بتلعثم واضح:

- مبروك يا علي.

دوى رنين هاتف شخص ما بالخارج.. "لو عاشقاني كلام تاني كلام ما قدرش يا قلبي عليه"

فابتسمت شيراز.

***

ابتسمت شيراز لدى رد فعل حازم، حملها من وسطها ورفعها ببساطة كطفل صغير بذراعيه المفتولتين ليجلسها، استند بكفه إلى الصخرة وبوثبة رشيقة أصبح جوارها، مسح يده بمنديل معطر وأحاط كتفها، أرخت رأسها لينام على صدره، شعرت بقوته وبالشعيرات البارزة من الياقة السبعة المفتوحة تداعب خدها وأنوثتها، دقات قلبه صبَّت كلمات الحب في مسمعها، كانا جالسين فوق أحد أحجار الهرم الأكبر.. اتخذا زاوية تطويهم عن العيون

الفضولية، بدأت شمس العصاري تتفهم معاناة الناس فخففت ببطء من وطأ حرارتها لتسمح بنسمة عليلة بأن تحنو على أرواحهم باعثة لحظة شجن أو تأمل أو حنين إلى غائب ما وعد بالعودة يومًا.

- وحشتيني.

- وحشتني.

- بجد ببقى حاسة بالأمان وأنا معاك.

- أنا عايش ليكي وعشانك.

أمسكت كفه وداعبته بإصبعها قبل أن تقبّله بحنان، ترك هذا أثرًا واضحًا على وجهه بالانبهار، داعب وجنتيها بتلامس لذيذ: أنا ما صدقت لاقيتك ومش عارف من غيرك كنت هأعمل أيه.. م بقاش ليَّا حد غيرك في الدنيا.

استكانت بين يديه وسكنته، لم تستطع أن تفسر كيف أمكنه هو -وهو فقط- أن يخطف روحها، وهي التي رفضت وتكبرت ومنحت ومنعت، هي التي كانت ملكة في عوالم أحلام كل من قابلوها، كيف يأتي هو ويأمر روحها فتصير له ومنه وإليه مشتاقة تسعى؟ أمسكت بملابسه كالأطفال وأطلقت زفرة ملتهبة وهي تسأله: بتحبني؟

- بعشقك.

- بتخاف عليًّا؟

- وأموت عشانك.. عارفة؟ لما أكون شايفك بأغير عليكي من عيوني.

ضحكَت: ماشي يا عم منير.

- عادي بقى، منير حبيب الشعب.

اعتدلت جالسة فجأة، وقالت بمكر أنثوي ترجع أصوله التاريخية إلى أمنا حواء نفسها:

- طب تعمل أيه لو قُلت لك إن فيه حد تاني بيحبني أوي.

استشاط غضبًا وخوفًا وجزعًا و.. غيرة.

- نعم؟ حد مين؟

رفعت كتفيها بدلال فتَّاك ظاهره اللامبالاة: حد.. معايا في البنك.

اعتصر كفاها بقوة حتى آلمها فتأوهتْ، كانت تنبعث من عينيه شرارة غيرة رجل استشعر خطرًا على حوائه.

- ويطلع مين ده بقى؟

(١٢)

أنا!

قلتها باستغراب لطلب مها توصيلي لها، كنا خارجين من البنك، وودعت علي: إلى لقاء قريب في المساء كما اتفقنا على ذلك أمس، فركب سيارته وانطلق، كان فرحًا لحصوله على موافقة رسمية من أهل داليا على الخطبة - وهو حدث تحصيل حاصل، فالموافقة مرتبة ومعدة من الأساس- وحددوا موعدًا، شيراز ذهبت في صحبة والدها الذي مر عليها بسيارته البيچو العتيقة، طوال اليوم لم أكف عن ارتباكي أمام نظراتها وابتساماتها، حتى حديثها خلال العمل وعن العمل كان يطوي حنانًا ملحوظًا، وقد بذلتُ جهدًا مضنيًا كي أقنع نفسي بأن كل هذا حقيقي، أنا لم أجن بعد وأعرف الفرق بين ما كان هلاوس وما هو حقيقي كما أن حالة الإظلام إياها -تلك الفترة التي حُذف فيها ليلة كاملة من حياتي- لم تتكرر، لم يبقَ سواي ومها التي فوجئت منها بطلب توصيلها معي إلى ميدان الجيزة، قالت إنها مرهقة جدًّا ولن تحتمل معاناة المواصلات اليوم، لم أكن في حِلّ من الموافقة ففتحت لها باب سيارتي لتجلس ممتنة، لاحظت نظراتها واسترخاءها فور الجلوس، كأنها تخطف لحظات ظافرة من قلب الواقع، أدرت المحرك وتحركنا بالسيارة مبتعدين.

- ليه مستغرب طلبي إنك توصلني؟

- أبدًا.. أصلها أول مرة، عمومًا تحت أمرك.

تأملتِ الشوارع الهاربة من نافذتها وردت بشرود باسم: متشكرة أوي يا رامي.

- على إيه ما فيش حاجة.

- ممكن أسألك سؤال؟

- اتفضلي.

- إنت ليه دايمًا مش حابب تتكلم مع حد وساكت كده؟

- عادي.. أنا بتكلم لما حد بيكلمني.

- وأنت ليه مش بتبدأ الكلام؟

نفخت في سري.. الحقيقة أني كنت مفكك بين شعورين مختلفين، الضيق من اقتحامها المفاجئ لي، وما سببه وجود أنثى مثلها على بعد سنتيمترات مني، عطرها المُدوِّخ وامتزاجه برائحة جسدها نفسه.. كل هذا يبعث في حرارة صاخبة بالرغبة، وزد على هذا ملامحها وهي مصيبة جنسية في حد ذاتها.

- مش عارف.

نظرت لي بطرف عينها بدلال، ضمت شفتيها وداعبت طرف خصلة متموجة من شعرها وقالت: أنت مدّايق إني معاك؟ آسفة لو كنت دايقتك.

"يخرب بيت دلع أهلك"، كتمتها في سري وتماسكت وأنا أتذكر قلبي الذي وضعته منحة لا ترد في يد شيراز.

- مش قصدي.. الحكاية مش كده.

- شيراز؟

ارتبج عليّ: ما لها شيراز؟

- أنت بتحبها يا رامي؟ قالتها بعتاب مائع.

- أأ.. لأ عادي.. شيراز زميلتنا وأنا بحترمها. لو كنت قد صرخت بأني مدله في هواها لكان أدائي أفضل.

- بس كده؟

- آه بس كده.. هايكون إيه يعني؟

- يعنى أطمّن؟

التفتُ إليها بدهشة فاصطدمت بعينيها، كانت تبتسم وكأنها تعرف أثر ذلك عليّ -وعلى أي رجل في الواقع- وفجأة انقلبت سحنتها وصرخت مذعورة: حاسب.. حاسب.. حاسب.

في الثانية الأخيرة أفقت وتمكنت بصعوبة من تفادي الاصطدام بسيارة مجاورة، كدت أن أرتطم بها وتحدث كارثة، عدت بالسيارة إلى حارتها الصحيحة في الطريق وجاءني سخط قائد السيارة الأخرى لاذعًا.

"حقك يا عم.. اوعدنا يا رب بمُزَّة زي دي تلبِّسنا.. أنا راضي"!!

زفرت بحنق مبتلعًا غضبي، أمسكتُ مقود السيارة بقوة في حين تعالت ضحكاتها التي تصلح لتعريف كلمة أنوثة بقاموس بنات حواء.

أوقفتُ السيارة في أحد شوارع الطالبية هرم لتنزل مها، علمت منها أنها ستركب سرفيس من ميدان الجيزة فأصررتُ على إيصالها لأتم جميلي، والحقيقة أنني كنت تحت تأثير شعور نهشني لأول مرة، وكأنني مراهق على عتبة البلوغ يستكشف ما تفعله أنوثة طاغية بهرموناته.. ذلك الشعور الذي كنت أئده خجلًا من نفسي.

- إنتي ساكنة في أي عمارة هنا بقى؟

ترددت لثوانٍ، ثم تسمرت ملامحها بعيدًا عني، التفتُّ لأرى ما أثار انتباهها لأجد شابًّا مفتول العضلات مشدود الجسد، ذلك الطراز الذي شدّ الزمن جسده وليست صالات الچيم، في عينيه شر ونظرة سوقية تميزها بسهولة، كان شديد الشبه بذلك الممثل محمد رمضان الذي لمع نجمه مؤخرًا عن طريق أدوار البلطجي التي لا يؤدي سواها، كان يمشي بصحبة فتاة من فتيات العباءة السوداء والشعر المصبوغ بماء الأُكسچين.. تتأبط ذراعه بتلك الطريقة التي تجعل عضده يحمل ثديها حرفيًّا، تلكأ في مشيته حتى وقف على مسافة قريبة منا، تتدلى سيجارة من فمه باستهتار كما سلسلته المعلقة برقبته، ويبدو أنه أدرك شبهه بنجمه المفضل فأفرط في تقليده، هرعت مها خارج السيارة ورأيتها تركب توك توك، وينطلق بها بعدما دوى من الكاسيت داخله صوت أغنية شعبية ما مجهولة المؤدي، هكذا رحلتْ أو بالأحرى هربتْ دون كلمة.. هل هو قريب لها؟! أدرت المحرك من جديد ففوجئت بالشاب يقف أمام السيارة وينظر لي نظرة حش الرقاب، خبط بيده على الكبوت ثلاثًا، كان يوصل لي رسالة تحذيرية مفادها ألا أقترب من مها ثانية، نظرته بليغة جدًّا، نظرت له وابتسمت.

- وبعدين؟

قالها علي بعدما قصصت عليه ما حدث عصر اليوم باستثناء موضوع الهرمونات طبعًا، كنا جالسين بمطعم (فلفلة) بوسط البلد بانتظار الأوردر، بدا غير مهتم كأنه ينجز الكلام للحديث فيما هو أهم.

- ولا قبلين.. فضل واقف شوية وبعدين مشى.

- طيب.. رامي، أنا كنت عايز أقولك على موضوع كده.

- كان عندي إحساس إنك عايز تقول حاجة.. فيه إيه؟

هنا كان النداء من الشيف فقد انتهى من الأوردر، أحضره علي وذهب إلى الناحية الأخرى من المطعم ليحضر البطاطس المقلية والـ ketchup، أخيرًا جلس إلى جواري.

- ها.. قول يا بني فيه إيه؟

- ناكل الأول ونتكلم وإحنا بنشرب الشاي.

- الشاي نشربه عندي.. أنا مش رايح القهوة دي تاني.

ضحك بصوت عالٍ: ماشي يا عم Hulk.

في شقتي كان علي هو من أعد الشاي، استرحت لكوني تقبلت وجود صديق مقرب في حياتي، استطعت على الأقل كسر حاجز الرهبة من

الآخـرين، ولذلك كان تعـاملي معه على السجية، أخـبرني بأمر الدكتور حسن الجمّال الأخصائي النفسي فغضبتُ.

- ليه يا علي؟ أنا ما طلبتش منك تعرض مشكلتي على حد.

قال وهو يرتشف من كوبه، كان يعشق شرب الشاي فور صبه، أما أنا فقد كنت أنتظر حتى يبرد لأشربه دون لسعته لطرف لساني: أولًا: ده مش حد.. ده دكتـور متخصـص، ابنـه مهـاب كـان معانـا في الميـدان.. مـن شـباب الثـورة يعني.. على فكرة مهاب ظابط شرطة، وكمان استعنت بيه في معلومات علمية لداليا لما كانت بتكتب مجموعتها ومن ساعتها بقينا أصدقاء، ثانيًا: أنت ليه واخد الموضوع ببساطة كده؟

انفعلتُ: هو أنت خلاص حكمت أني مجنون؟

- أيه الكلام ده بس؟ أمال سيبت أيه للناس الجَهَلة، ما فيش حد خالي من المرض النفسي.. واضطراب نفسي مش معناه جنون.

- أنا ما بحبش كده يا علي.. ما بحبش.

- إنت خايف يا رامي.. مش ما بتحبش.

تنهدتُ: هخاف من إيه بس؟

- خايف من كل حاجة.. خايف من الدنيا كلها، يا راجل دانت خايف تقول للي بتحبها إنك بتحبها.. رامي، الموضوع بجد خطير وما يتسكتش عليه.. عارف يعني أيه بيعدي عليك وقت مش عارف أنت بتعمل فيه أيه.. يعني ممكن ترتكب جريمة وأنت مش عارف.

هالني الاحتمال: جريمة؟

- آه يا رامي، جريمة ولا نسيت اللي حصل في القهوة.

امتقع وجهي فأردف: اسمع.. أنت لازم تخرج من السلبية اللي أنت فيها دي.. يا أخي صاحب واحدة.. ادخل على النت.. تواصل مع الناس.. ممكن أعرف ليه أنت مش عايز تقول لشيراز إنك بتحبها؟

- ما أعرفش رد الفعل هايبقى إيه.. وحتى لو هي بتحبني.. إزاي أربطها بيا وأنا في الحالة دي.

- شوفت بأه إن الموضوع كبير.. أنا شايف إن وجودها في حياتك هو اللي هايخرجك من الحالة دي.

ترددت للحظات، ثم أرخيت جسدي على كرسي الأنتريه المريح وشردتُ:

- مش هاينفع يا علي.. مش هاينفع.

(١٢)

في صباح اليوم التالي ووسط صخب العمل اليومي كنت أجالس عليًّا أمام مكتبه، شيراز ومها كانتا عند الـ Coffee machine بالخارج، أخبرته أنني فكرت فيما قاله لي أمس وقررت الاندماج أكثر مع المجتمع، بش وجهه قائلا: يبقى عليك وعلى الـ facebook وtwitter هما دول أكثر وسيلة للتواصل دلوقتي، وأفهمني أن الحراك السياسي هو الغالب حاليًا، وأكد على كلامه بأن أراني فيديو على you tube لطفلة في العاشرة تلقي قصيدة عن الخرفان بمنتهى الشجاعة أمام وزير التعليم.. وزير حكومة الإخوان، استنفرت من كون عقل الطفلة أشبه بالإناء الفارغ يقبل أي سائل يصب داخله، ولو كان أبوها قد علمها أصول الرقص الشرقي أو إلقاء خطبة دينية أو حتى زرع داخلها حب الإخوان والسمع والطاعة لفعلت نفس الفعل بنفس البراعة.

- لالا المسألة مش تحفيظ.. فيه مداخلة ليها مع يوسف الحسيني وقالت كلام ولا أجدع معارض في جبهة الإنقاذ أو الناشطين السياسيين يقدروا يقولوه، عمومًا أقصد أقولك إن السياسة بقت أسلوب حياة حتى مع

الأطفـال، ادخـل أنـت عـلى الصـفحات الرسـمية للمفكـرين والأدبـاء والسياسيين وكوِّن وجهة نظرك بنفسك.

- يا عم سياسة إيه في اللي أنا فيه ده؟

- هو أنا بقولك انزل مظاهرات؟ يابني افهم، الثورة وجهت كل مشاعرنا للسياسة سواء كانت زي الفل أو زي النيلة، وفي كل تيار ووراء كل رأي هاتلاقي بني آدم كامل بأحلامه وعواطفه ومشاكله وجوعه كمان، تفاعَل يا صديقي، ت..فا..عَل.

دخلتْ شيراز وتبعتها مها وهي تحتضن سلمى الصغيرة، كانت تلاعبها بشكل مبالَغ فيه، لحظات واستشعرت الوجود اللزج لياسين، وقف يتأملنا للحظات فقط كي يثبت وجوده:

- علي، حضر لي ملف المنياوي جروب.

ندت همهمة من علي توحي باستجابة لم يأبه بها ياسين الذي ارتسمت على وجهه بسمة حانية وهو يسأل سلمى عم إذا كانت تحب أن تبقى هنا أو تأتي معه إلى مكتبه، سارعت مها بافتعال الأمومة والحنان فورًا:

- ما تخافش عليها يا أستاذ ياسين.. سمسم دي بنوتي الحلوة.

اندهشتُ من ردها خاصة بعد ما حدث في توصيلة أمس، ويبدو أن ملامحي فضحتني فسدد لي ياسين نظرة كراهية:

- وإنت ليه مش على مكتبك؟

على الفور انتقلت للجلوس خلف مكتبي دون كلمة، وسكت ياسين للحظات قبل أن يبتسم لمها ثم نظر لشيراز كأنه يكيدها:

- خلي بالك منها يا مها.. شكلها بتحبك أوي.

وانصرف.

خرجتُ إلى ال Coffee machine بالخارج وكالعادة غُصت في أفكاري وكأن القهوة هي ملهمتي، استشعرت حركة ورائي فوجدت شيراز تنظر لي بعتاب:

- زعلان إنت أوي إن مها بتتدلع على ياسين.

- أنا؟ والله أبدًا.. وأزعل ليه؟

- اسأل نفسك.. على فكرة عرفت إنك وصلتها إمبارح.

- هي اللي طلبت واتحرجت أقول لأ.

مدت يدها لتمسك كوب القهوة الورقي وتعمدتْ أن تلامس يدي للحظات قليلة، استكشفت شقاوة في عينيها كادت أن تذيبني، ذهلت مما حدث.. هكذا أخذتْ قهوتي وفوقها روحي كهدية مجانية.. وظللت متسمرًا لدقائق.

في شقتي جلست مبعثر خلايا المخ، تراها شعرت بي أخيرًا؟ والأهم، هل تغار عليّ حقًّا؟ وحتى لو.. كيف سيكون رد فعلها لو أنها علمت ما يحدث لي مؤخرًا، إن ما حدث في المقهى يجعلني خطرًا داهمًا في لحظات عشوائية لا أستطيع التنبؤ بها أو التحكم في نفسها خلالها، وماذا عن أبي أو ذكرياتي التي أراها مجسدة أمامي كأني أشاهد فيلم رعب تعمد مخرجه أن يجعل صورته ضبابية كئيبة، شعرت بالصداع يبدأ رحلته المقدسة في رأسي فنفضت الأفكار من ذهني تحت وطأة الماء البارد الذي دسست رأسي تحته، لم أجفف شعري وتركت الماء ينساب على وجهي ورقبتي، تنهدت وقد تذكرت نصائح علي ففتحت جهاز الكمبيوتر وولجت إلى موقع facebook لأجد رسالة من علي تحتوي على لينكات لصفحات وجروبات سياسية وأدبية ومواقع إخبارية، تصفحتها قبل أن أصاب بالملل سريعًا من كل هذا الفَتْي والتذاكي، نظريات مؤامرة وتكفير وسباب وكأن الشعب المصري كله قد تحول إلى خبراء سياسيين أو وعاظ ورجال دين،

ضحكت من قلبي حين قرأت جملة لعم جلال عامر رحمه الله نشرها شخص ما على حائطه، "إحنا شعارنا معروف، تناقشني أناقشك... تختلف معايا أقتلك"، وعدت لتصفح الموقع فمللت بعد وقت قصير، انتقلت إلى موقع you tube مدفوعًا بحبي للعم جلال وشاهدت حلقة لباسم يوسف معه آنستني تلك السخافة التي أصبحت واقعًا مصريًّا للأسف وتغللت في جميع طبقاته بالطول والعرض، في النهاية أغلقت الجهاز ونمت.

حين استيقظت مساءً كان أول ما لفت نظري وأنا في طريقي للحمام هو تلك الورقة الملصقة على حافة شاشة الكمبيوتر.. لا أذكر أني فعلت هذا، انتزعت الورقة من مكانها، وانتظرت لحظات حتى تذهب غشاوة النوم عن جفوني، وقرأت كلماتها المكتوبة بخط منمق:

"خليك في النت بتاعك وابعد عن شيراز نهائي"

حازم

حازم!

(١٤)

اليوم كسرتْ قلبه، طلبت منه شيراز أن يكف تمامًا ونهائيًّا عن طلبه بالزواج منها، كانت فظة وكانت قسوتها عاتية بلا رحمة، أنت لا تشبه فرسان الأحلام.. أنت بلا موهبة أو ميزة حقيقة تجعل فتاة مثلي تهيم بك، حبي لابنتك ليس له علاقة بك حتى وإن كنت سببًا في وجودها على ظهر البسيطة، اليوم نزعتْ قناعًا يدَّعي الشباب كان ملتصقًا بروحه.. ويا ليته كان ملتصقًا بوجهه، نزعته بأظافر الحقيقة التي تجاهل إدراكها.. سنوات العمر التي رحلت بسرعة ضوئية لم يحس بها ولم تأبه له، نزعته فأبى أن يخرج دون أن يأخذ معه قطعًا من أمل زائف كان متغلغلا في لحمه ذاته فترك أخاديد دامية لن تندمل أبدًا.. تهاوى كبرياؤه أمامها فدمعت عيناه وهو يصارحها بأنه لا يستطيع أن يكون أبًا وأمًّا في نفس الوقت، توسل إليها استعطافًا بحرمان ابنة صغيرة وجدت فيها هي بالذات حنان أمها الغارب.. غارب ولن يشرق ثانية.

- أنا بحب سلمى أوي وربنا يعلم.. بس ده مش معناه إني أنفع أحل محل مامتها الله يرحمها.. مش هاقدر أكون جوه المربع ده.. أنا آسفة بجد.

- بس أنا بحبك.

اختلط بداخله حبه لها بحب ابنته وتعلقها بها فصنعا كتلة مشاعر متشابكة عجز عن التفريق بين أي منها، وهي تأتي اليوم لتعتصر قلبه فيذوب بدوره ويلتحم مع سلبيات معنوية لها القدرة على الطفح وكسو ملامحه.. بل وتلويث كل ما تلمسه يداه.

- شعور جميل منك وما حدش يقدر يلومك عليه.. لكن أنا مش..

قاطعها يائسًا وقد أدرك أن هذا القدر من الابتذال لذاته يكفي جدًّا:

- ما بتحبنيش.. عمومًا خلاص آسف على الإزعاج.

يعلم تمامًا أنه يقسو على نفسه بدوره وأن بانتظاره ليالي سوداء يعلم الله وحده كيف ستمر عليه.

- شكرًا يا أستاذ ياسين، وأتمنى إن دي تكون آخر مرة نتكلم فيها في الموضوع ده.. اتفقنا؟

- اتفقنا.

- بعد إذنك.

بخطوات وئيدة ينسل لداخل غرفة نوم سلمى ويقف أمام فراشها وهذا الموقف الأليم يعتصر ذكرى تساقطت في فنجان قهوته فأحالته علقمًا، تركه

ومشى في هدوء على أطراف أصابعه إلى غرفة ابنته كي لا يزعجها، تأمل ملامحها بحنان.. ياالله.. ألا تستحق هذه الملائكية أمًّا اشتاقت كثيرًا إلى حضنها، اقترب منها فلم يستطع منع نفسه، داعب وجنتها الصافية وقبل جبينها حابسًا دموعه فاستيقظتْ.

- بابا.

عانقها بقوة وانهال عليها بقبلاته: بحبك خالص يا سمسم.. مين نور عين بابا؟

حركت ذراعيها بفخر طفولي رقيق كاد أن يذيبه: سمسم طبعًا، وسمسم كمان عاوز حاجة.

اندس تحت غطائها واحتضنها نائمًا على جانبه.

- عارف طبعًا دلع حضرتك.. عاوز بابا ينام جنبك النهارده، بس هنَّام من غير حواديت.. أنا ما بعرفش أحكي.

اشرأبت الطفلة متعلقة بملابسه حتى قبلته واستكانت في حضنه، وكأنها قبِلت بهذا العرض عن طيب نفس: سمسم بيحب ينام في حضن بابا، زي ماما ما كانت بتاخدني في حضنها، ماما وحشتني خالص.

طاخ.. تلك الجملة الأخيرة أصابته في مقتل، وهي لا زالت تسبح في عالم الأحلام الوردية الطفولي الذي تركه صانعه ورحل.

- هي في الجنة عند ربنا.

- طيب ما هي تيجي تشوفني.. ولا الجنة دي بعيدة؟

فلتت دمعتان رغمًا عنه، حفرتا وجنتيه بملوحة لن تستطيع أنهار الدنيا إزالتها.

- ما حدش بييجي من الجنة، إحنا اللي نروحلها.

رفعت رأسها الصغير إلى السقف غارقة في تفكير عميق وبصعوبة تكلمت:

- هي تقول.. إممم.. هي تقول لربنا أنا رايحة أشوف سمسم.. هو هايوافق على طول وتيجي.

بجهد جهيد قاوم أنهار دموع تضرب روحه: طيب ننام بقى ونتكلم بكرة.. ماشي يا سمسم؟

- ماشي.

وأخيرًا: عادت الطفلة إلى نومها، بعثرت الملاءات كعادة الأطفال التي تخلق فوضى تبعث بداخلك حنان الدنيا.. نامت واستكانت، أما ياسين فكان جاثيًا على الأرض تشقُّه النهنهات وتعصره.. تدفنه حيًّا فتأبى رئتيه التنفس لولا رحمة من ربه.

(١٥)

كنتُ هناك.. صرير الأرضية الخشبية كان مخيفًا، ينبعث من ألواحها وكأنه الأنين فيمتزج بهزيز أعاصير الهواء الآتية من النوافذ العملاقة.. وتغزو القشعريرة جسدي، أكز على أسناني، أسير في طرقة ضبابية لا أستكشف ما بعد أمتار قليلة مما أمامي، عن يميني النوافذ الضخمة تحكم قبضتها على زجاجها لكنها تُفتح بعنف ضربات الهواء لها، ارتطمت إحدى الضُّلف بنافذة جوارها فتحطم لوح الزجاج مصدرًا دويًّا رهيبًا، ارتعدتُ وتخبطتْ ركبتاي ذعرًا وأنا أهرول هربًا، الطرقة ضيقة جدًّا، لأول مرة تنبهت لوجود كل تلك الأبواب عن يساري فأبطأتُ الخطى، تعالت الضحكات من الغرفة الأولى.. ضحكات رهيبة جمّدتِ الدم في عروقي، رأيت نفسي وأنا بعد صغير.. يحملني أبي ويقذف بي إلى أعلى وأنا أكركر ضاحكًا.. كما في الصورة القديمة، أمي تضحك بسعادة محاولة إخفاء قلقها وتخوفها من احتمال سقوطي، فجأة لمحني من في الداخل وارتسمت في العيون -كل العيون- نظرة مفزعة تنذرني من التمادي في التجسس على هذه العائلة السعيدة.. عائلتي! أسرعت الخطى وأنا أحافظ على مكاني بمنتصف الطرقة متجنبًا صف الغرف عن يساري والنوافذ عن يميني، الغرفة الثانية تقترب.. تعالى الصراخ والعويل.. صوت

طلقات، دانة مدفع، طعم الموت.. رائحة الغزو.. الغرفة مساحتها خرافية.. إن بابها يفتح على مدينة كاملة، تسمرتُ أمام الباب.. ارتعدتُ، لم أستطع حراكًا.

***

راتا تا تا تااا.. بوم.. الصراخ.. العويل.. بووووووووم.. الدماء.. على كتف أبي ويفر بي جاريًا.. يتعثر.. يتلوى.. يبكي.. يصرخ.. ينشج.. يدي الصغيرة تعتصر المجلات.. وجه أبي الملطخ بالدم.. صيحات هلع.. الجحيم.. النيران.. اللهيب.. الشظايا.. الهدم.. السحق.. الغبار.. كان لنا بيت هنا.. كانت لنا حياة.. راتا تا تا تااا.. بوووووووم.. اللهيب.. وجه بطوط تلوث بالدماء.. راتا تا تا تااا.. بوووووووم.. صراخ وعويل يسحقان أذنيّ الصغيرتين.

راتا تا تا تااا.. بووووم.. الغبار واللهب يغمران كل شيء.. كل شيء.. قذيفة أخرى من دانة مدفع الدبابة.. بوووووووووووم: ماكو مقاومة.. ماكو مقاومة.

ولا زال أبي يفر بي جريًا.. يصرخ ويبكي: أمك جوه يا رامي.. أمك جوه.

***

هنا امتدت يدي وأغلقت الباب بعنف فسكتت الأصوات، تعالى لهاثي وتسارعت دقات قلبي، ببطء أتقدم للأمام.. الباب موارب، ينفتح ببطء شديد وصريره يصم أذنيّ، رويدًا رويدًا ينكشف ما خلفه.. صرختُ في فزع.. الباب مسدود بوجه عملاق شرير لبطوط تتدفق الدماء من محجري العينين المقلوعتين، وبين منقاريه نبتت أنياب قذرة تثير الغثيان، أغلقتُ الباب بهستيريا وأسلمت ساقي للريح.. أهرول والأبواب تجري مسرعة عكس اتجاهي، تمر أمام عينيّ خاطفة كالبرق.. يصيبني مما خلفها مشاهد أو أصوات كلها انبعثت من ذكريات تسفح مستقبلًا لا أسعى إليه ولا أريده، لمحت شيراز وهي ترقص فوق قارب صغير يطفو على النيل.. توقفتُ، كانت تضع سماعات الهاتف في أذنيها وترقص، رقصتها هفهافة راقية، بدت في أوج فتنتها وجمالها.. ترقص وتضحك.. وتدوي ضحكاتها مجسمة من الجهات الست حولي، فجأة رأتني، ابتسمت بحب ومدت يدها لتغمسها في مياه النيل وترميني بقطرات مداعبة، لكن القطرات لم تصل إلى وجهي قط، فجأة توقفت القطرات في الهواء وتحولت إلى قصاصات ورقية.. قصاصات كثيرة غمرت الهواء من فوقي، تراجعتُ خطوات فارتطمتُ بالشاب الإخواني..

صرختُ وقد رأيت الدم يغمره، امتدت يده ليتشبث بملابسي. لكنه لم يستطع أن يكمل حركته هذه فقد سقط مغشيًّا عليه، ومن كفه تدحرج شيئًا ما على الأرض، اقتربت جاثيًا على ركبتيّ لأرى كنه ما سقط منه فوجدت زهريّ نرد، وقد ثبت كل منهما على الرقم واحد.. كانا في وضع الهَب يَك، كما يطلق عليه محترفو الطاولة أو الدومينو غير عالمين أنها اللغة الفارسية، امتدت يدي لألتقطتهما فوجدت أن لا وجود لنصفي السفلي! كان يتلاشى تباعًا ويتحول إلى قصاصات! جسدي ينقص بالتدريج ويتحول لحمي وعظمي إلى قصاصات تطير في الهواء.. انتهت قدماي وبدأ نصف جزعي الأيسر في التفتت.. هنا دوت صرختي التي احترقت لها حنجرتي.

- آااااااااااااااه.

وانتفضت من نومي مختنق الأنفاس يغمرني العرق البارد، اعتدلت في الفراش فشعرت بشيء ما يكسو جسدي، انتفضت ملسوعًا لأضيء النور فوجدت نفسي مغمورًا بالقصاصات الورقية!

(١٦)

فرغ ياسر همَّام من إرسال صورة طفله الرضيع إلى محمول حنان سالم بعدما تنهد بحرارة وأطفأ سيجارته الخامسة في النصف ساعة الأخيرة، كان هذا بمثابة برهان على أنها تقف في منطقة متفردة من اهتماماته وروحه، هو لا يعلم لم فعل هذا خاصة أن خبر مولوده الجديد هذا لم يعرفه سوى أقرب المقربين له ولزوجته، ربما لأن حنان سالم ليست مجرد كاتبة ضمها أوتوماتيكيًّا إلى مسبحة نسائه التي يقلبها كيفما شاء بين أصابعه مستمتعًا كون مسبحته هي التي تُسبِّح باسمه وليس العكس.. وإنما هي برغم تخطيها الأربعين من العمر لا زالت تشِع أنوثة، تلك الأنوثة التي لها ضجيج قادر على زوال صمم غريزة الرهبان، أنوثتها صاخبة.. متجلية في وجهها وكفيها وهو فقط ما تسمح ملابسها بإظهاره منها ولكنه يعد بالكثير فعلًا، وبرغم احتشامها الكامل فإن لها ملامح تعبر تخيلات العشق ببساطة إلى تخيلات الفراش.. لها شفتان آمرة ودافعة ومجبِرة على إلهاب الشهوة في تخيلات جنسية تفوق التقبيل بكثير.. عينان سوداوان واسعة برموش طويلة ومرسومة بعناية تطبع على الفور في خيالاته شكل إغلاقهما بقوة ونشوة وقت ممارسة الحب، بشرتها بيضاء يانعة مخملية تعد بلذة حريرية، أما عن

سلاحها الأهم والأشد طرًّا فهو صوتها.. لها صوت يذيب الحديد ويتحول الرجل أمامه فورًا إلى عاجز أبله متأخر الإدراك لثلاث ثوانٍ أو أكثر قليلا، وككل امرأة منذ عهد حواء فهي تخبئ داخلها طفلة لا تكف عن شقاوتها ودلالها واحتياجها إلى لهو جميل محبب للنفس الذكورية، كل هذا كان سببًا لمكانتها المتفردة في قائمة حريمه، كان المدخل إليها يوم أن هاتفها ووجدها تبكي، وهو المطلوب بالظبط.. أن يواجه الأنثى الهدف وهي ضعيفة هشة في أوهن حالاتها النفسية.. وقتها تكون جدرانها العازلة كخيط العنكبوت يسهل اختراقها ليصبح في قلب روحها، حنان سالم أم لثلاث بنات قمرات استقوا فتنتهن من المنبع.. الأم، كانت تبكي وحدتها.. تعتني ببناتها وحدها.. تدفع الفواتير وحدها.. تستذكر لهن وحدها.. تغير قطع الأثاث وحدها.. تكتب وحدها.. ترتشف قهوتها وحدها.. وفي الليل تنام في فراشها البارد وحدها.. معظم لياليها، ولا تعود تلك الوحدة لانشغال زوجها وغيابه المتكرر-بحكم عمله عن بيته فقط، وحدتها متأصلة منذ الطفولة، فقد كان جمالها الآخاذ جرمًا حقيقيًّا في عين أبيها، فهو أب جاف متصلب الأبوة والدماغ.. وخصها وحدها بجفائه لأنها الأنثى.. فقد كان يخص أخاها بعاطفته كاملة دون

أن يترك لها شيئًا، وقد كان اختيارها لطريق القلم والكتابة فصلًا جـديدًا من الانعـزال عن أسـرتها.. إثمًا جـديدًا يضاف لفتنتها.. معجبين وقراء ذكور تفانوا في إبداء إعجابهم عبر موقع facebook ولا يخفى على أحد أن لجمالها دورًا كبيرًا في هذا، فهذا يبدي إعجـابه.. وهذا يترنم بكلمات.. وآخر يعتصر موهبته للفوز بلفت نظرها، وتستمر التعليقات والتلميحات.. وهي سعيدة جدًّا بكونها (معمول عليها حفلة Comments) والمقزز أنها تدرك تمامًا -وهم يدركون- أن كلًّا منهم تظاهر بأنه كشف عن رقتها وجمال روحها بينما هو يحترق في خياله وهو يكشف عن جسدها العاري.. فاغرًا فاه، يتسـاقط اللعاب من شدقيه، ويتمنى اللحظة التي سينهش جسـدها فيها.. هي راضية راغبـة وهـم يتسابقون سجـودًا في محراب جسدها المعروض لهم.. مدثرًا بكلمات.

تلك رؤية مـن حولها حتـى وإن كانـت تتمتـع بموهبـة حقيقيـة، ولهـذا صـدر فرمـان عـائلي بمقاطعتهـا، حتـى اللحظـات الحميمية بينها وبـين زوجهـا لا تُعَـد إلا عملية ارتطام جسديهما ببعضـهما حتـى يفـرغ شـهوته، كفّ عـن تقبيلهـا منـذ زمـن بعيد، كـم تمنـت لـو أنـه احتضـنها وقبّلهـا دون مناسبة ودون أن يكـون ذلـك تمهيـدًا لمضـاجعة جافـة.. ولكـن حتـى هـذا التمهيـد لم يعـد يحدث، كـان يتحسس مفاتنهـا ويحدث الارتطام وينتهي، كم تمنت لو أنه أعد لها قهوتها وهي تكتب أو حتى يهتم

ويسمعها رأيه، كانت تفكر دامعة في كل هذا وهي ترقب بناتها من مقعدها في النادي حين ارتفع رنين هاتفها.. كان الطالب هو ياسر همام، على الفور افتعل الجذع عليها ومن أجلها.. كانت بحاجة إلى من يسمعها وتفرغ ما بروحها على مائدته، وهكذا كان الهدف سهلًا.. تنفس بعمق.. وأحكم التصويب.

***

كان هذا منذ سنوات حين تخلتْ عنه، كانت المعادلة بسيطة جدًّا.. هو يملك مفتاح قلبها، والآخر يمتلك مفاتيح سيارة فاخرة وشقة فخمة وخزينة عامرة، اجترّ مرارة لحظة النهاية كاملة غير منقوصة:

- بعتي نفسِك؟

- بعت نفسي! إنت إزاي تكلمني كده؟ واحد بيحبني وشاريني وهاتجوزه على سُنة الله ورسوله.

- سنة الله ورسوله بتبيح الزنا؟

- زنا! إنت اتجننت، أكيد حصل في مخك حاجة.

- لو كان اللي هاتتجوزيه ده زيي كده بالظبط ما حيلتوش حاجة.. كنتي هاتوافقي عليه؟

انكتمتْ، فابتسم بمرارة:

- شـوفتي بقى إن أنا صـح، المسألة سهلة أوي.. واحد معاه فلوس وهايدفع ويجيب ويصرف، عـارفة مقابل إيه.. هتنامي له عريانة، ياكل ويشرب من جسمك.. بالفلوس يا هانم.. كله بالفلوس.

ذُهلتْ وانفجرت ببكاء مكتوم:

- هو عشان عايزه أكون معاك أبقى مادية والمهم عندي الفلوس، أنا لو كده كنـت قبلـت أتجـوز مئـة واحـد قبلـك، إنـت لـو أصـلا بـاقي عـليّ كنـت اتمرمطت عشاني.. إن شالله تشتغل تلات شغلانات في اليوم.

- شغل إيه اللي يجيب كام ألف جنيه في كام شهر، شبكة وشقة وعفش.. لو كنت زيه معايا فلوس كانت أمك هاتبقى راضية أوي عني.

انفجرتْ صارخة:

- أنا زهقت.. زهقت من فشلك وعجزك ومبرراتك الخايبة.

هنـا هـوت الصـفعة عـلى وجههـا، جـذبها مـن شـعرها بعنـف وسـط صرخاتها.. دمعت عيناه بغِل وكز على أسنانه:

- إنتي مش جيتي تقولي الكلمتين وخلاص، غوري بقى من وشي، كلكم زي بعض.. شوية مومسات فاتحين رجليكم للي يدفع.

دفعها بعنف فجَرَتْ هاربة منفجرة بالبكاء، امتدت يده لتلطم وجهه بعنف مرات عديدة وهو ينهار على ركبتيه.. دوت صرخات روحه الملتاعة.. وما من مجيب.

***

وببطء اخترقتا الدمعتان كينونة ياسر فمزقتاه وهو يتذكر موقف النهاية، وقتها اتخذ قرارًا بتحديد طريقه في اتجاه واحد، قرر أن يقتل أفكاره وقلمه -خط دفاعه الأخير- ويبدأ في نهج آخر، نسي تمامًا مبادئه وكتاباته وفكر ساخرًا أنه لو قرر أن يبيعها لما أوفت بثمن رغيف خبز.. تذكر بيت شعر لهشام الجخ.. إنك تبيع قلمك واسمك.. ما يجيبوش حق الرغيف، وكانت أولى خطواته في طريقه الجديد هي حرق كل ما كتب.. لم يستثنِ حرفًا، وعلى مدار ست سنوات عمل خلالها في دور النشر كمسؤول توزيع، ثم تدرج ليعمل في إدارة النشر قبل أن يصبح رئيسها مستخدمًا جميع الأساليب الحقيرة في الإطاحة بزملائه من وشاية أو إطلاق شائعات توغر صدر مجلس الإدارة

عليهم، أيضًا سلك طريقًا طويلًا عريضًا من أجساد النساء المباحة، فقد تعلم كيف يوقع بهن في حبائله بعدة طرق أغلبها متشابه كما تتشابه نساؤه، كان يضاجعهن باضطرام مصطنع ولا يترك لشهوته العنان إلا بعدما يفرغن شهوتن أولا، تعلم كيف يتحكم في غريزته ويمتلك مفاتيحها، وفي لقاءات الجنس الهاتفية كان يوحي لهن بأنه وصل للذروة معهن فقط كي يبقي حماسه للمرأة الأخيرة قبل نومه، وكثيرًا ما كان يستغل تعلقهن به في الاستيلاء على أموالهن بدافع الحب والوقوف بجانبه في أزمات اختلقها، وأخيرًا.. استغل ثقة مُلاك آخر مركز ثقافي عمل به واستخدم منصبه كمدير لإدارة النشر وقد كان هذا النشاط مستحدثًا على المركز- في النصب على الكُتاب الجدد وأصحاب العمل معًا بالتلاعب في فواتير المطبعة وتكاليف التوزيع وما إلى ذلك متجنبًا تسجيل أي بند يخص المادة في العقود، وقد كان هذا قبل أن يضرب ضربته بجمع مبلغ محترم من عدد لا بأس به من الكُتاب مورطًا رؤساءه في الالتزام بطباعة المؤلفات كما تنص العقود، وكانت فضيحة كبرى أغلق على إثرها المركز واستدان مُلاكه للوفاء بالديون.. ووسط هذا الصخب تزوج ياسر، تزوج فقط ليثبت لنفسه أن حقيرًا ذا مال هو أشرف

بمقاييس العصر من شَريف مفلس، بعدها افتتح دار نشر وابتكر طرقًا جديدة للنصب والإيقاع بالكاتبات بين فخذيه، وتجنبًا للصدامات سدد جزءًا صغيرًا لمُلاك المركز الثقافي ووعد بتقسيط الباقي، وأخذ يقطر لهم الأموال أحيانًا ويماطل أحيانًا أخرى.. كل هذه الذكريات عصفت به وأكلته أكلًا، فرك فروة رأسه بقوة وزفر بحرارة، أشعل السيجارة السادسة شاردًا قبل أن يمسك بهاتفه ويطلب شخصًا شغل باله في الأيام الأواخر كثيرًا، داليا.. داليا نوري.

(١٧)

كانِ الصـراخ يتعـالى.. صـوت الطلقات.. دماء وضجيج الاقتحام والالتحام، كان من بينهم وكانت أهدافـه محـددة سلفًا.. ربما منحته حفنة الجنيهات في جيبه بعض الضمير في إتمام عمله، بجواره شباب ملتحون يرددون عبـارات ما لا يفهمها، ولا يهـمه أن يفعل.. الشـرعية واليســار والعلمانية وبنو ليبرال وعبارات أخرى لا تجد لعقله سبيلا ولكنه يسمعها كثيرًا جدًّا في التليفزيون، كان هناك بعض الأسرى كذلك وقد استلذ أن يُخرج كل ما في نفسه من حنق تجاه هؤلاء، هو الآن في معسكر الملتحين، وقد أخبروه أن ما سيفعله من أجل الإسلام، وقد تحمس لهذا وفارت دماؤه بالرغم من أنه لا يعرف عن الدين إلا أن الله هو الرحمن الرحيم، وأنه لن يكترث كثيرًا لذنوبه وسيرحمه حتمًا ما دام مسلمًا، وأنه عند ذكر سيدنا محمد يجب أن يردد بسرعة أن عليه الصلاة والسلام، وأنه سيكون قريبًا جدًّا من رحمة الله إذا حافظ على صلاة الجمعة وهو الذي لم يصلّها منذ أربع سنوات لأن من مثله أقل بكثير من أن يقف أمام الله فيئس من رحمة خلقه بالتبعية، فتح مطواته في سرعة بينما الرجال أمامه يرتجفون وهم منهكون من أثر ضرباته ومن معه، كانوا ينهالون عليهم بالضرب والشتائم

المقذعة.. أحدهم أخرج محمولا وراح يصور ما يحدث مستمتعًا وهو يوجه أوامره لهؤلاء الأسرى:

- قول ياض إنك قابض من الحزب الوطني وإحنا نسيبك.

- خدت كام يا بن العرص عشان تخرب البلد؟!

وكانت هناك فتيات قالوا له أن يعبث بأجسادهن كيفما شاء لأنهن (شراميط) وجايين هنا عشان كده.. أخبروه أن هذه الخيام تضم أقذر خلق الله، وأن عليهم فض اعتصامهم من أمام قصر سيادة الرئيس؛ لأنهم أعداء الله والوطن، وأما عنه هو فلم يكن يعنيه كل هذا الهَرْي من (بتوع) السياسية ولا يفهمه من الأساس، كان كل ما يعرفه أن هذه فرصته ليأخذ حقه من هؤلاء المدللين الذين يعيشون في عالم آخر لا يعرف الحرمان، ويأتون الآن ليخربوا البلد ويهدموا الدين، خلع حزامه ووقف أمامهم، استعرت ناره فانهال عليهم وتعالى صراخهم واستنجادهم وتوسلهم فصريخ هو صرخة طغت على كل الأصوات:

- أنتم مش شايفينا ليه يا أولاد القحبة؟

ويجذب رمضان أبو حشيشة نفسًا جديدًا من سيجارته الملوثة بالزيت، تضاعف معدل تدخينه للحشيش منذ أن رأى مها في سيارة ذلك العيِّل السيس، أولاد المَرَة لا يكفون عن الشراء ولا يكفون عن سلبهم حياتهم وأمانيهم.. يصعدون هم على رقاب من مثله فينزل ومن معه لتحت تحت تحت، استند إلى جدار السطوح وأغمض عينيه منتشيًا، كان على يقين أن الحشيش هو الشيء الوحيد في هذه الدنيا الذي يستحق أن يعيش من أجله، الحشيش يطفو به فوق همومه وعالمه القذر.. الحشيش يخلّصه من أشكال لا يطيقها لحياته، بل إنه يقربه من الله! نعم، فعندما يسحب أنفاسه المتلاحقة ويتسرب دخانها إلى خلايا مخه يصفو ذهنه وتتجلى أمامه حقائق راسخة يؤمن بها على الفور، الله كبير جدًّا ورحيم وسيسامحه في الآخرة لأنه محروم من كل شيء في الدنيا، ويكفي أنه يعرفه ويعرف رسوله -عليه الصلاة والسلام- وهو يصلي عليه بمجرد سماع اسمه.. ألا يكفي هذا؟ قال لسعيد الحرباية:

- دا إحنا ما نجيش نملة في عرشه يا جدع.

- إيه يا زميلي، إنت هاتقلبها دَرَوَشة.. طب دا أنا النهارده مظبطلك حتة هِتيَة ع الآخر، الواد بَعَت كارت بمئة وجابهم على روحه.

- إنت مش هاتبطل وساخة ياض.. أنا خايف تقلب معاك بجد هع.. هع.. هع.

- ساعتها مش هاخلي شاب نفسه في حاجة هههههخخخخ.

سعيد قادر تمامًا على أن يتحدث بصوت نسائي قح وقتما شاء، بل إنه قادر على إثارة غرائز الرجال إذا سمعوا صوته المصطنع هاتفيًّا، وهو يسترزق من موهبته هذه بممارسة الجنس من خلال الهاتف مع الشباب الموهوم وأغلبهم صعايدة بسطاء يعملون بالمدن- بأنهم يكلمون صاروخًا طاغي الأنوثة مقابل كروت شحن، هذا بالإضافة لأنه يمكنه تقليد صوت الأطفال وعدد من الفنانين كذلك بإتقان تام، وقد استخدمه شريف باشا كثيرًا في الإيقاع بزملاء وُرتب كبيرة بتسجيل مكالمتهم مع سعيد باعتباره عاهرة تليفون، كان شريف يستمع إلى هذه المكالمات وهو يتمرغ من كثرة الضحك، ومن هنا أطلق عليه الباشا لقب "حرباية"، وتطور به الأمر بعد ذلك حتى إنه وبترشيح من الباشا لعب دور سيدات البيوت التي تنوح وتصرخ ذعرًا في مكالمات القنوات الفضائية، يهاجم شباب ثورة يناير واصفًا إياهم بالعملاء والخونة ويقبِّل قدم سيادة الرئيس قائد الضربة الجوية وبطل الحرب والسلام حسني مبارك أبي المصريين أسفًا.. والحق أن مكالماته أثّرت في مشاعر قطاع

كبير من الشعب العاطفي بطبعه، تعالت ضحكاتهما في هيستيريا، لعلعت الإيفيهات ونسيا الدنيا، تبخرت مرارتهما مع دخان الحشيش، حلقا بعيدًا محققين أحلامهما في عالم الخيال، رأى رمضان مها وهي تنتظره بشوق عند عودته من عمله الحلال، وفي نفس الوقت يكفيه ويفيض، كان يرتدي بدلة (الأفندية)، ويضع منظارًا طبيًّا مثل أحمد زكي في فيلم معالي الوزير، احتضنها بلهفة وحملها سريعًا إلى الفراش وهي تبدي اعتراضًا مائعًا أجج شهوته، طالبته بدلال أن يتناول غداءه أولا أو يستحم لكنه لم يصغِ وذاب في جسدها، كانت تحبه في خياله ولا ترى رجلا غيره، لم يفكر في ماذا يعمل في أحلام يقظته ولا حتى شكل شقته، كان محترمًا وهي ملكه وهذا يكفي، أفاق على صوت سعيد يدعوه للأكل.. على الأرض فرش ورق الجرائد، وفتحت أمامه لفة كبيرة بها كباب وكفتة وطرب وخبز وسلطات.

- يخرب بيت أمك يا سعيد.. إيه ده كله يَلَه.

ضحك سعيد ولم يعلّق وبدأ في الأكل بجشع، شيئًا فشيئًا بدأت سعادة رمضان المتوهمَة تخبو، طفح حلقه بمرارة أعادته لأرض الواقع، دعك وجهه بكفيه وتراجع ليستند إلى الجدار من جديد:

- مالك يا زميلي؟

قالها سعيد بفم مليء بالكفتة والطحينة، طل الغضب من عينيّ رمضان:

- هي ليه الناس بنت الوسخة دي مش عارفين إننا بني آدمين زيهم؟!

وعاد رمضان إلى شروده، تذكر كم مرة شارك في ضرب متظاهرين أو فض اعتصامات أو تحرش بصحفيات، كان شريف باشا يجمعهم ويأمرهم بالتحرك عند الوقت والمكان المحددين، هذه مصادر رزقه الوحيد.. إن شريف باشا يوفر له التموين اللازم من الحشيش -رمضان يفعل أي شيء مقابل الحشيش- كلما أعجبه ونفذ له مهمة ما، وهو ما يهمه ومن بعد ذلك هي (بتُرزق) بالنسبة للطعام والنقود القليلة أو أي شيء آخر.. ولذلك هو يجب أن يكون رهن إشارته، دعك من أن الباشا قادر على تلفيق قضية بودرة له في أية لحظة مثلما فعل مع سيد ورضا وأبو مكرم، وكيف أصبح حال عائلاتهم من بعدهم بل وزاد عليهم عبء تكاليف زيارتهم في محبسهم، ذات مرة رأى زوجة رضا تحمل زيارة لزوجها عبارة عن قطعة جُبن سلطة ثمنها ثلاثة جنيهات، فباع من أجلها قطعة الحشيش الوحيدة في جيبه وأرسل ثمنها مع تحياته لرضا، وشقه الحزن لحالهم وفقدان القطعة العزيزة، كل هذا كان يدفعه إلى مصير محتوم معروف سلفًا وكله بأمر الله، المرة الوحيدة التي

ضعف فيها تجاه إيمانه هذا كانت في مظاهرة هاجمها منذ سنوات مع زملائه كان وسعيد يكيلان الصفعات لشاب يبدو أنه (شفايفه حمرا)، ولم يذق طعم الحرمان من شيء أو على الأقل هناك من يهتم به.. صاح الشاب من وسط ضرباته هو وسعيد:

- إحنا نازلين عشانكم.. المفروض تبقوا معانا مش علينا.

لم يعيراه اهتمامًا، وواصلا الضرب والشاب لا زال يصرخ:

- أنا عايش كويس ومش محتاج حاجة.. أنا جاي عشانكم إنتم.

توقف وبُهت أمام العبارة الصارخة، هناك شخص ما ادعى -ولو بداعي الخوف- أنه يشعر به ومن مثله، أمسك يد سعيد ليوقفه عن ضربه فصاح سعيد معترضًا:

- فيه أيه يا زميلي ما تخلص ديك أم السبوبة دي؟!

لم يرد على سعيد ووجه كلامه للشاب:

- نازل عشانّا إحنا؟

انهد الشاب جالسًا على الأرض: أيوه نازلين عشان يبقالكم كرامة، عشان تعيشوا زي البني آدمين.

نقل سعيد نظره بين الشاب ورمضان حائرًا، ابتلع رمضان ريقه وقرر.

- اتكل على الله وامشِ من هنا.

امتدت يد الشاب في إشارة واضحة فأعانه رمضان على النهوض، وقف ونظر في عين رمضان مباشرة: مش هانمشي. وهانفضل نحاول لغاية لما كلنا ناخد حقنا، وإنت اللي زيك أولنا.

أدار رمضان ظهره للشاب وهم بالانصراف ولكن الشاب استوقفه بجذبة من يده: إنت اسمك إيه؟

نظر له رمضان بتردد فشجعه الشاب:

- يا سيدي، خلاص بلاش اسمك.. عايزك بس تعرف إنك ليك حق في البلد دي ومش هانهدي غير لما نجيهولك.. ما ينفعش ناس تكح تراب وناس تعيش في قصور، ما ينعفش يكون فيه باشوات وخدامين للباشوات.

جمدت ملامح رمضان ولم يرد وبدت البلاهة على وجه سعيد، ابتسم الشاب وأردف وهو يربت على كتف رمضان:

- أنا أخوك علي.. علي السمري.

(١٨)

كانت مجلاتي القديمة ممزقة تمامًا ومبعثرة على جسدي، أصابني الذعر الهستيري.. من فعل هذا! كيف وقـد تمـزق ما يبقيني حيًّا، كيف وقد تغربلتْ منابع سعادتي وألمي معًا، شللت تمامًا وتراجعت حتى التصقت بالجدار، سابت مفاصلي وببطء تراخيت على الأرض، حشرت قبضتي في فمي مانعًا نفسي من الصراخ، كيان ما أحاط بي وتغلغل في تفاصيلي، كيان ما قادر على كل شيء يخصني وكأني أصبحت طوع بنانه.. تراه أبي؟ وكيف لطيف أعـرف أنه هلاوس أن يفعـل مثل هذا، تراه من يدعـى حـازم! متشتت أنا وخائف ومرتاب.. إني مقترب من الجنون، ملتاع عقلي وممزقةٌ روحي بحالة فقد صكها عليّ القدر، الوحدة شعور خانق والخوف محركها ومشلعها بدنياي، متخبط وتائه بلا أحد وبلا شيء وبلا هدف، علي؟ لم أُرِد أن أخبره بأمر رسالة حازم هذه خشية أن يكون الأمر كله وهمًا، شيراز؟ هدف باهت وبعيد يسكن أحلامي فقط، والرسالة -التي أخشى أن تكون وهمًا- كانت هي محورها، مددت يدي أتحسس القصاصات، القصاصات! تذكرت الكابوس

والضباب.. رقصة شيراز، وجه بطوط، الغـزو وعـائلتي، النوافـذ العمـلاقة والأرض الخشـبية ذات الصـرير المرعب.. ثم توقف ذهني مُرغَمًا عند مشهد واحد.. ملأ ذاكرتي ومخيلتي، أحاط بي واستولى على حواسي، زهريّ النرد.. الهَبْ يَكّ.

في البنـك كـان ارتبـاكي واضـحًا، أخطـأت كثـيرًا في اسـتيفاء معلومـات وشروط تخص قروضًا بالغة الأهمية، وشردتُ أكثر أمام عميل ما فبدوت غير مهتم به ولا أشعر بوجوده من الأساس مما جعله ينفجر غيظًا، تدخل علي سريعًا قبل أن يبلغ الموضوع ياسين المتربص لنا ولي على وجه الخصوص، حتى شيراز تحاشيت النظر إليها وتجنبت محادثتها، وددت لو أضع لافتة "مُبعثر" على صدري لأتجنب الناس جميعًا، حاول علي معرفة ما بي فأكدت له متلجلجًا أنني (كويس).

- لأ باين عليك ياض.

ساخرًا قالها، هكذا قضيت اليوم متهربًا من التساؤلات، لاحظت أن مها أصرتْ على أن تحمل البوسطة اليومية بنفسها إلى مكتب ياسين وقد جذبت

الأوراق جذبًا من يد شيراز قبل أن تصعد هي بها، لمحت استغرابًا اعترى ملامح شيراز وبسمة ساخرة على وجه علي، دفنت وعيي في أوارقي وأخذت أقلِّبها دون أن أقرأ منها حرفًا أو أراجعه، وببطء ظهرت تلك الورقة المطوية على نفسها مرة واحدة، مكتوبة بنفس الخط المنمق ظهر معكوسًا من ظهر الورقة، تنبهت إلى كونها موضوعة عمدًا وسط الأوراق المرتبة سليمة دون أن تطوى في الملف الخاص بطلبات القروض التي لم يبت فيها بعد من المركز الرئيسي، انتابني هاجس ما حاولت نفضه سريعًا من خاطري وأنا أفتحها متوجسًا.

"بذمتك فيه حد في سنك يقرأ مجلات ميكي! يا راجل عيب عليك.."

حازم

انتفضت مذعورًا حتى أنني أسقطت الأوراق وكوب الشاي البلاستيكي أمامي، بدوت في ردة فعلي هذه أبله تمامًا أمام علي وشيراز، همهمتُ بعبارات أسف لم أتبينها أنا نفسي، شرعت شيراز في محاولاتها الفورية لمنع تفاقم الفوضى على مكتبي بينما علي لا يكف عن أسئلته عن حالتي مرتابًا، هو يعرف الكثير حقًّا والارتياب في قواي العقلية أصبح حقًّا مشروعًا له، لم أنطق بحرف وانفصلتْ حواسي عما حولي، أراهم يتكلمون دون صوت

وامتلأ سمعي بأزيز خافت له القدرة على إصابتي بالجنون، ببطء أستعيد حواسي فاستدرت لأغادر لولا أن فوجئت بمها واقفة عند مدخل بلوك المكاتب وأسرعت بإمساك يدي في قلق:

- ممكن تطمئنا عليك؟

فتحت فمي لأستنشق أكبر قدر ممكن من الأُكسچين، فطنتُ إلى أنني لا زلت ممسكًا بالورقة فدسستها في جيبي سريعًا وسط نظراتهم الزاعقة بأنني مجنون حتمًا، كان آخر ما لمحته هو الغضب العارم على وجه شيراز قبل أن أفر هاربًا من هذا كله.

بحذر دخلت شقتي، مشيت على أطراف أصابعي مفتشًا كل شبر من الشقة، خلف الأنتريه، الصالة، المطبخ، الحمام، غرفتي.. القصاصات والرسالة الأولى لا زالوا هنا، دولابي.. بعثرت ملابسي ومن تحتها ظهر صندوق ذكرياتي الذي كان لأمي يقبع مكانه مغلقًا على ماضيّ اللعين، لا شيء.. تسمّرت للحظات مفزوعًا، تأبى قدماي أن تستجيب لأوامري، بعد عُسر تحركتْ مطيعة ومستسلمة، مشيت أرتجف نحو غرفة أبي المغلقة، لم أدخلها منذ فررت هاربًا من طيفه -وطيفي- خارج الشقة قبل أن أعود إليها بمعجزة ما، أقترب ببطء.. ثلاث

خطوات.. خطوتان.. خطوة.. أمسك بالمقبض.. بارد كالثلج، أتنفس بعمق، يدي تعاندني، صرخ صوت ما بداخلي "اهرررب فورًا"، اخرس.. بالله عليك اخرس، شحذت قواي.. الآن سأفتحه.. الآن، وهبط فجأة الكف على كتفي، صرخت.. وانتفضت فزعًا، تعالت دقات قلبي، زادت سرعة تنفسي حتى ألجهت باللهاث.. واستدرت لأرى.

- علي!

كان علي واقفًا أمامي وما زالت كفه على كتفي، نظراته قلقة وقد أفزعه رد فعلي.

- إنت دخلت هنا إزاي؟

ارتبك للحظات وقال بسرعة: إنت سايب الباب مفتوح.. مالك يا رامي؟ من الصبح وإنت شكلك مش مطمئني.. هو حصل حاجة جديدة؟

تركتُ الباب مفتوحًا! لم أرد وظللت أنظر له طويلًا.. بدهشة بالغة.

•

(١٩)

كعادته -كما لاحظتُ- كلما تمعن في فهم شيء ما، أحاط الدكتور حسن طرفيّ إطار عدسة منظاره الطبي اليمنى بالوسطى والإبهام ليعدّل من وضعه على وجهه، أشعل سيجارته ونظره ما زال معلقًا بالرسائل الورقية، تأمل محتواها وهو يهمهم في خفوت بقراءته.. حشر سيجارته ما بين السبّابة والوسطى وأسند خدّه إلى كفه الممسكة بها وشرد بعيدًا وكأننا لسنا موجودين، نقر لمرات بطرف الرسائل على خشب المكتب قبل أن ينظر إليّ فجأة وكأنه تنبّه لي أخيرًا.

- حازم ده يعرفك كويس أوي.

- وأنا لا أعرفه.

رددت بسرعة كأنني أتحداه خاصة أني لمحت في عينه نظرة اتهام، كنت أرهب المكان وكاهنه الأعظم الجالس أمامي خلف مكتبه، لم أكن أعلم أن للطب النفسي هذه الرهبة التي تحيط بالأجواء وكأنها تعزله عما حوله من العالم الاعتيادي، نظرت لعلي الجالس أمامي فابتسم لي مشجعًا، كان د.

حسن ينظر لي متفحصًا وفجأة تغيرت ملامحه إلى المعنى المجسد للود والترحيب وكأننا أصدقاء قدامى.

- طب قولي يا رامي.. تفتكر مين اللي يعرف كل شيء عنك، وقادر يوصل لبيتك ومكتبك؟

- أنا ما ليش حد.. وما عنديش أصحاب غير علي.

ابتسم ومد يده إليّ بورقة بيضاء وقلمًا، خمنتُ ما سيطلبه.

- أستاذ رامي.. ممكن تعيد كتابة الرسائل دي بخطك.

انفعلت: عايز تقول إني بكتب الرسائل دي لنفسي! استنجدت بعلي: أنا لسه ماتجننتش يا علي!

ربت علي على كتفي مهدئًا وأومأ لي بمعنى: "ثق بي" في حين أضاف د.حسن:

- دي مجرد وسيلة نستبعد بيها الاحتمالات الأخرى، في النهاية أذعنت لها وأمسكت بالقلم ورحت أخط محتوى الرسائل بخطي، وتسببت رهبة الجو المحيط في إشعاري بأن خطي جاء غريبًا عن ما عهدته من يدي، في النهاية كان

تباين الخطين جليًّا، أعاد الدكتور حسن المقارنة بين خطي وخط المدعو حازم مرارًا قبل أن يتبادل نظرات قلقة مع علي، أسند ظهره إلى مقعده وفرد كفيه على سطح المكتب وسألني مباشرة:

- مين يعرف إنك بتحب شيراز؟

ارتج عليّ ويبدو أن حمرة الخجل فضحتني لأن علي ابتسم وكأنه يواجه طفلا يعترف في براءة بذنب اقترفه، اتسعت ابتسامته وأجاب هو: أي حد ممكن يلاحظ يا دكتور لو شاف رامي في وجودها.

بجدية سأل د. حسن: طب نعيد السؤال بشكل تاني.. مين عايزك تبعد عنها؟

على الفور أجاب علي: ياسين.

- ياسين! صرخت بها مشدوهًا، فسخر علي من دهشتي الساذجة هذه:

- صح النوم يا روميو.. ياسين بيحبها وجدًّا كمان.

تدخل الدكتور حسن: مين ياسين؟

رد علي وهو ينظر لي:

- مدير البنك.

شرد الدكتور حسن قليلًا ثم هز رأسه كأنه يطرد خاطر ما وقال: ده لا يبرر إنه يوصل لسريرك أو إنه يكون عارف موضوع مجلاتك القديمة.

أكدتُ على عبارته: أنا قُلت قبل كده إن ما ليش حد وما حدش يعرف عني حاجة، وما عنديش أصحاب غير....

وصمتّ فجأة، حدقتُ في علي المبتسم، شردتُ طويلًا ويبدو أنهما احترما صمتي المفاجئ فلم ينطقا، تداعت الخواطر في ذهني تلطمه وتهرسه هرسًا، ثم وبدون سابق إنذار اندفعتُ مغادرًا المكتب فالعيادة والبناية كلها.

كنت غارقًا في أفكاري السوداء ماشيًا الهوينى لا أعرف لي وجهة ولا أستطيع منع تدفق تداعيات ذاكرتي المتشققة فطفحَت وجهه في كل مكان..

***

اختفى أبي إثر ضربات الطارق وبنفس متوجسة ومسحوقة ذعرًا امتدت يدي في حذر لتفتح للقادم:

- علي!

- إزيك يا رامي.. أحسن دلوقت؟

كان الأمر غير متوقع خاصة وأني لم أتلقَّ أية زيارة شخصية في شقتي من قبل، أفسحت له الطريق كي يدخل فدخل.

***

ولقد أحاط بي علي حتى خيل إليّ أنني لو فتحت باب الثلاجة لوجدته.

***

ثم دخل للمطبخ ليذوِّب بعض السكر في كوب ماء وأسقانيه.

في شقتي كان علي هو من أعد الشاي، استرحت لكوني تقبلت وجود صديق مقرب في حياتي.

هل كان يضع عقارًا ما فيها يسقيه لي!

***

كان هذا آخر ما وعيته قبل أن أسقط مغشيًا عليّ..

سقطتُ في شقتي مغشيًّا عليَّ أمامه وكنت طوع بنانه!

***

كـان أول مـن استعاد رباط جأشه هـو عـلي.. ألقـى بنفسـه عـليّ وأحـاط ذراعيّ ووسطي بيديه في قوة صارخًا:

- خلاص يا رامي.. خلاص يا رامي..

***

كان علي واقفًا أمامي وما زالت كفه على كتفي، نظراته قلقة وقد أفزعه رد فعلي.

- إنت دخلت هنا إزاي؟

علي في كل مكان.. علي متواجد قرب كل حادثة.. علي تغلغل في حياتي ومن السهل عليه الوصول إلى غرفة نومي - ربما صنع لنفسه نسخة من مفاتيح شقتي حين أغشي عليّ- ومن السهل جدًّا أن يضع الرسائل على شاشة كمبيوتري الخاص أو بين أوراق مكتبي في البنك.. واحدًا فقط كان يستميت في محاولات محاصرتي، واحدًا فقط يهتم بعلم النفس ولا أعرف لأي مدى اهتمامه هذا، ولا ما هي الفكرة المسيطرة عليه، واحدًا فقط.. كان هناك يملأ أركان عالمي.. علي السمري!

ظللت لساعات سائحًا على وجهي حتى كلّت قدماي، اتخذت طريق العودة للبيت، أمشي ببطء ومخي عبارة عن معجون أسنان خرَج من أنبوبه، وبات من المستحيل إعادته لمكانه، مررت بمقهى.. مقهى عادي جدًّا يعكس الروح المصرية التي صدعوا رءوسنا بها وهم من أكلوا من لحمها حرامًا، نهارًا جهارًا، "الغربة بتخلي الناس تاكل في بعض.. وأول ناس تبيعك وتتمنالك الشر هما المصريين اللي زيك"، قالها أبي يرحمه الله -وليرحمني معه- يومًا ما، ولم أكن أعلم أن الغربة ستصبح لشعب هذا الوطن سكنًا، حتى وهم يتمرَّغون في ترابه، وبرغم كل شيء أغبطهم.. حياتهم بسيطة واضحة لا أحجية فيها.. ولدوا وعانوا فماتوا دون أن يشعر بهم أحد.. هكذا ببساطة دون ضوضاء أو صخب، منذ فجر التاريخ وهم أساتذة الثورات الفاشلة، هم ملوك العاطفة الحمقاء التي أودت بهم إلى قاع العالم الثالث، برغم كل شيء غرقت في تأملاتي، شلة عواجيز التفوا حول مباراة طاولة حامية وتعالت ضحكاتهم، شباب في مقتبل العمر يشربون شايًا ويدخنون شيشة الفواكه، مناقاشتهم هدفها أن يُشعِر كل منهم من حوله بأنه الفاهم العالم ببواطن الأمور، وأن الطرف الآخر أحمق وعليه أن ينصت في هيبة إلى أقواله التي هي الحكمة مجردة.. وسط كل هذا برز هو، وكأنه في كادر سينمائي يظهر

العالم من خلفه Out of focus وهو الشيء الوحيد الجليّ في الصورة، وسيمًا جدًّا.. واثقًا جدًّا.. أنيقًا جدًّا، هذا الشاب كانت لعينه قوة راسبوتين، وكانت مسلطة عليَّ، عقد يديه أمام صدره واجتاحني بنظراته، لم أجد سببًا للذعر الذي انتابني، قررت أن أهرب من أمامه ولولا الحفاظ على بعض الوقار لفررت جريًا، وكأنه يعلم ما دار بعقلي ابتسم بسخرية مخيفة، أسرعت الخطى مبتعدًا عن المكان، من بعيد تناهى إلى سمعي صوت رجل ما من شلة عواجيز الطاولة:

- ها ها ها هاااااه.. هَب يَك يا حلو، راحت عليك.

لم يَغِبْ هذا الشاب عن مخيلتي طوال طريق عودتي، كان وجوده بارزًا وسط مشهد باهت وكأنه فرض حضوره على الواقع ذاته، لاحقتني صيحة الهَبْ يَكّ تصك تسمعي وتجُر وراءها آلاف المرات من صدى صوت العجوز.. هَب يَك.. يَك.. يَك.. يَك، تمالكت نفسي من الإجهاش بالبكاء كالأطفال، أنا هشٌ ضعيف لا قبل بي بتلك الأحجية التي تطاردني، قررت أني في طريقي للجنون وسأستسلم كعادتي، صعدت الدرج المؤدي إلى شقتي، كان الضوء الخافت الذي تركه جيراني بالطابق الأسفل مضاءً يُمكّنني بالكاد

من رؤية ما تحت قدمي.. تذكرت الكابوس، أمام باب شقتي رأيت شبحًا ما جالسًا.. سلويت لرجل ما.. أجفلتُ، اقتربتُ أكثر دون إرادة، كان هذا علي.. جالسًا بانتظاري على السلم.

(٢٠)

في اليوم التالي كنت واقفًا متحجر اللسان متلعثمًا أمام شيراز، هذا العضو الزلق بين فكيّ داخل فمي خُلِق عجبًا.. فهو كفيل بأن يذهب بك إلى داهية دون رجعة بزلة صغيرة، وحين تحتاجه يتحول إلى حجر صوان لا يمكن زحزحته مهما حاولت، كنا واقفين على بعد خطوات من البنك بعد انتهاء العمل، حاولت خلخلة حجري الثقيل لينطق:

- هو.. إحم.. عارفة؟ ساعات بيبقى فيه حاجات الواحد ما يعرفش يقولها إزاي.

ارتسم على وجهي تعبير أبله بالتأكيد وأنا أتظاهر بأني نطقت بسر الكون، نظرَت إليّ باستخفاف وبرود شديدين، أجابت:

- همم.. كمِّل، وبعدين؟

كتلة جليد أطبقتْ على حماسي فأحالت عالمي إلى رجفات صقيع مشتعلة باليأس فعجزتُ عن إذابته: معلش متلخبط شوية، أنا تعبان جدًّا الأيام دي.

لوت ابتسامتها في سخرية تعبيرًا عن سخافة ما أقوله: لأ، ألف سلامة عليك.

- ما فيش حاجة خلاص أنا ماشي.

استوقفتني جُملتها التي نطقتها بصوت أعلى قليلًا:

- ما تنساش تبقى تطمئن مها.. أصلها كانت قلقانة عليك أوي.

قالتها وذهبت هي، ظللت متسمرًا لثوانٍ قبل أن أجر أذيال خيبتي معي إلى سيارتي الواقفة قريبًا، استندت إلى نافذة علي الجالس بانتظاري في المقعد الأمامي، عرف ما حصل فور نظرة إلى وجهي:

- شكلك نيِّلتها.. اركب يا زفت.

انطلقتُ بسيارتي مبتعدًا عن المكان، ظللنا صامتين لدقائق حتى كسرتُ هذا الصمت: بجد ماكنش ينفع.. غريبة إنها حسستني بغيرتها عليَّ.

- من مين؟

تنبهت لرد علي فقد كنت أفكر بصوت عالٍ:

- هه؟

- بتغير عليك من ميين؟

- مها طبعًا يا عم كولومبو.. إنت مش معايا ولا إيه؟

- لا مش معاك.. زماني جاي.. يا عم انطق وقول اللي حصل بالظبط.

وتذكرتُ ما حكاه لي علي بالأمس، أجفلتُ عند رؤيته بانتظاري على السلم، أخبرني أنه ظل ينتظرني لساعتين كاملتين، جاء مصرًّا على إثبات حُسن نواياه، الدكتور حسن أكد له أنني أشك فيه لأنه الوحيد الذي يعرف عني الكثير، وأن عليه إرجاع ثقتي به، قال إنه يعرف عني الكثير لكنه لا يعرف كل شيء، فهو لم يكن يعلم موضوع مجلات الطفولة هذا وأهميتها بالنسبة لي قبل اليوم فكيف له أن يمزقها! كما أنه أعاد كتابة الرسائل بخطه أمامي فكان بعيدًا كل البعد عن خط المرسِل، ثم كيف له أن يجعلني أتوهم أشياء أو أرى هلاوسًا؟! هذا ينطبق على قصص الخيال العلمي وليس عليه، وأفاض بأنه كيف يمكنه أن يجعل ليلة كاملة تُمحى من ذاكرتي؟! فكرتُ في أن موضوع الهلاوس هذا كان قد بدأ بالفعل قبل أن تتوطد علاقتي بعلي، أخبرني أن الأمور قد اتخذت منحنى خطيرًا وأنه لن يتركني إلا وقد تخلصت من مشاكلي، الدكتور حسن نفى أن أكون قد بعثت بهذه الرسائل إلى نفسي لتباين الخطوط وأن فقدان الذاكرة الانشقاقي لا يحدث إلا بعد التعرض لصدمات نفسية عنيفة وكانت سياسته هي "لننتظر ونرى"، وهو -علي- لن يسمح بذلك لأننا أصدقاء ولن يتركني في محنتي هذه، كما أكد على ضرورة أن أكون إيجابيًّا وأتوقف عن سلبيتي المميتة هذه، دفعني دفعًا إلى مواجهة شيراز

بمشاعري، أصرَّ وألحَّ وتشبث.. الحق أن كلامه بدا منطقيًّا بعدما هدأتْ حالة الذعـر الثائرة بجنبات نفسي، رويدًا رويدًا عاد إليَّ شعوري الودود الدافيء تجاهـه، ابتسمت فاحتضنني وعـاد إلى إصراره على مواجهتي لشيراز بحــبي، وقد كان وحدث ما حدث للتو.. أستطيع تفهم رد فعلها تجاه كلامي - وقد كانت مشاعري مكشوفة وتفضحني متآمرة مع ملامح وجهي - ومن حقها تمامًا ألا تبادلني الشعور بالحب، ولكن ما موضوع غيرتها هذه!

(٢١)

الحياد بين الحق والباطل هو أحقر رأي على الساحة، إن الحياد في الوقت الذي يكون فيه الباطل بيِّن والحق بيِّن هو عين الحقارة والجُبن، ويقول دانتي[٤] "أن أحلك الأماكن في الجحيم، محجوزة لأولئك الذين يحافظون على حيادهم في أوقات الأزمات الأخلاقية"، ولهذا وقَّعا على استمارة (تمرد) واختارا معسكرًا واضحًا، تلك الحركة التي ظهرت مؤخرًا وأنذرت بالغليان الذي تطويه البلاد أسفل جلدها، بات واضحًا إلى أين سيتجه الإسلام السياسي بالدولة.. الغريب أنهم تفاجئوا وامتعضوا وكبتوا بداخلهم غضبًا، طفحت على المنابر الإعلامية وجوهًا غريبة تجعل المشاهد لها يبكي همًّا، دعك من أن الرئيس نفسه يتحدث عن القرد والقرداتي والأصابع التي تلعب، دعك أيضًا من أن فخامته يداعب أماكن حساسة في جسده في حضور سيدة ذات صفة رسمية ترتدي چوب قصير.. فعل هذا أمام الكاميرات! هذا هو الجانب المضحك في الموضوع.. المضحك همًّا، لكن الشعب فعلًا يعاني.. لا

٤- دانتي أليغيري: شاعر إيطالي من فلورنسا، وهو صاحب الشعر الملحمي الأشهر الكوميديا الإلهية.

كهرباء.. لا سولار.. لا بنزين.. ارتفاع أسعار، وفوق كل هذا يلقى تعجرفًا وغرورًا من كل من لديهم صلة أو انتماء لجماعة الإخوان -أبناء البنا كما يسميهم علي السمري- وهكذا كانت عوامل الثورة الثانية تتكون وتتراكم في سرعة جنونية، لو أنهم فقط قرءوا تاريخ البنا وجماعته لما ولوهم الحكم، لكنهم - مسكين هذا الشعب- كانوا مرغمين على الاختيار ما بين المتاجرة بالدين والمتاجرة بهم هم أنفسهم، ماذا تنتظر من أمة تقرأ نصف كتاب في العام؟! أمة اقرأ!! ويااللسخرية والعبثية!! لذلك كان علي وداليا من أوائل الذين وقعوا الاستمارة، بل ودعموها وجمعوا وحشدوا لها.. ومثلما حدث في الثورة الأم.. ثورة يناير ٢٠١١، تم تحديد ميعاد للثورة الجديدة بعد أشهر معدودة، وقد قوبلت هذه الدعوة بالسخرية، ثم بالقلق ثم بالرعب عندما رأى مؤيدو النظام حجم المنضمين إليها.. وفُتحت أبواب الجحيم، ظهرت حشود المؤيدين - وساندهم التيار السلفي وحزب الوسط وكل أحزاب تيار الإسلام السياسي- يهددون ويتوعدون الشعب، حملوا سلاحًا واستعرضوا مليشياتهم علنًا، وهي الامتداد الطبيعي للتنظيم الخاص، وباركهم شيوخهم بفتاوى تكفِّر المعارضين وتبيح دماءهم، غسلوا عقول البسطاء منهم -وما

أكثرهم- بأن الأمر حرب على الإسلام، ويعلم الله وحده إلى أين ستمضي الأمور بهذا الشعب، لكن علي وداليا خُلِقا معارضين، وهؤلاء المعارضون لا يمكن إخراسهم سوى بإرسالهم إلى القبر، كانا عائدين من مقر التيار الشعبي بعدما سلَّم علي هناك عددًا كبيرًا من الاستمارات، لم يتبادلا كلمات حب أو شيء من هذا القبيل، بل كانت السياسة هي المسيطرة على حواراتهما، حتى موعد خطبتهما لم يتحدثا عنه، لكنهما وسط كل هذا كانا يريان في الأمر مسحة رومانسية، وهما من ولدت قصة حبهما وسط ميدان التحرير تحت تأثير الغاز المسيل للدموع وصوت الرصاصات، لهذا كانت جولاتهما معًا واجتماعاتهما بالشباب الثوري من تيار اليسار بكل أشكاله هي قمة الرومانسية، كانا سعيدين وقد استعادا أجواء الثورة والميادين، شيء واحد نغَّص عليهما هذه السعادة المتوارية، مكالمات ياسر همام التي لم تجبها داليا طوال اليوم، لاحظ علي أنها تتجاهل الرد في حضوره لمرتين على الأقل، كان يخمن أنها تخبئ عنه أمرًا ما بخصوص ياسر بدعوى أنها لا تريد مضايقته أو خوفًا من تهوره بدافع الغيرة، سألها واستفسر وألحَّ وأصرّ، كانت تروغه وتتجاهله ثم تعود لإجابات غير مقنعة أو عائمة، غضب واشتعل قلقًا وغيرة، رقَّت لحاله

فأخبرته بأنها تتلقى هذه الأيام حصارًا من ياسر سواء من خلال المحمول أو الـ facebook في صندوق رسائلها، احتدَّ النقاش بينهما، كان تحاول أن تفهمه أنها قادرة على صد أي محاولات سخيفة وأنها تمتلك شخصية قوية وعاقلة تمكنها من الخروج من هذه المواقف دون شوشرة أو ضجة، في المقابل أكد هو على أنها ملكه هو ويغار عليها من الهواء الطائر ولا يسمح لمخلوق بمجرد التفكير فيها، تصادمت وجهات النظر حتى أنه قد علا صوته، تأففت من طريقته وامتعضت، في النهاية رحل غاضبًا بعدما أوصلها إلى بيتها صامتًا موشكًا على الانفجار، اطمئن إلى أنها وصلت لبيتها آمنة.. أدار ظهره وانصرف دون أن ينطق بكلمة، في طريق عودته كان قد انتوى شيئًا.

***

في المساء كانت وسيلة هروبي الوحيدة من إحباطاتي والأحجية التي تعتصر دماغي هي محاولة لصق المجلات وإصلاحها بالسوليتِب، وكأني أعيد لصق عالمي وتجميعه من جديد، كل ما يربطه ببعضه هو تلك الأشرطة الشفافة الواهية، الغلاف الملوث بالدم كان كما هو.. فقط مفصول عن مجلته التي كانت متدثرة به خوفًا من مواجهة واقعي المُبهم، وكأنه تعمد تعرية انعزالي تاركًا الدم راسخًا

وملتصقًا بروحي ذاتها، كان وجه بطوط الملوث بالدم ينظر لي.. تغيرت نظرته! أصبحتْ عدوانية شريرة، تدكّ حصوني كما دكّت القنابل بيتنا في الغزو، تذكرت الكابوس.. وجهه العملاق.. عينيه المقلوعتين ودماء محجريهما.. ترررررررررررن، جرس الباب! انتفضت مفزوعًا، أفقت تدريجيًّا واستعادت حواسي المكان والزمان من حولي، نهضت متاثقلًا لأفتح للقادم في ساعة متأخرة مثل هذه وأنا أنوي زجره أيًّا كان هو، فتحت الباب و.. ورأيته.

****

وسيمًا جدًّا.. واثقًا جدًّا.. أنيقًا جدًّا، هذا الشاب كانت لعينه قوة راسبوتين، وكانت مسلطة عليّ، عقد يديه أمام صدره واجتاحني بنظراته.

****

أحسست أن قدميّ تزنان أطنانًا، لم آتِ بأي رد فعل بينما هو قد دخل إلى شقتي بثقة، أغلق الباب وذهب ليجلس مستريحًا على أريكتي، حالة من الجمود تملكتني، استغرقت عشر ثوانٍ على الأقل حتى أُدرك ما يحدث، انتفضت فجأة وصحت به:

- أنت مين وعايز إيه؟ وإزاي تدخل من غير استئذان.

وضع ساقًا على ساق وقال باستخفاف.

- يا عم بالراحة على نفسك شوية.. إنت ما عندكش حاجة نشربها؟

فارت دمائي في عروقي، جذبته من ذراعه لأطرده وأنا أصرخ فيه:

- إنت تخرج بره دلوقت حالًا

فجأة وبكل شراسة انقض عليّ ليشدني من ياقة قميصي بعنف، ملامح وجهه أصبحت شيطانية، ارتجفت رعبًا وانتفض جسدي بين يديه، قال بصوت جمّد الدم في عروقي:

- اسمع.. أنا أعرف عنك كل حاجة.. أحلامك.. حياتك.. كل اللي فات وكل اللي إنت بتعمله.. وهاتعمله.. كل اللي بتفكّر فيه.. وحتى اللي في ضميرك أعرفه..

أضاف بلهجة رهيبة وببطء شديد:

- إنت.. مش عارفني ولا إيه؟

- أنا حازم.. حازم يا رامي، إنت مفكر إن شيراز ممكن تبص لواحد مجنون زيّك؟!

ابتلعت ريقي بصعوبة شديدة وكأني أُدخل في جوفي سلكًا شائكًا، نظرته كاسحة وغضبه مفزع، خطر لي أن ما يحدث لا يحدث فعلا، مددت يدي الراجفة أتحسسه، ارتسمت على ثغره ابتسامة ساخرة أتت على ما تبقى من محاولة مواجهته:

- هاهاهااا.. إنت فاكرني وهم ولا حلم.. فاكرني جزء من جنانك.. بذمتك واحد مجنون زيك من حقه يحب ويتحب؟! ما ترد!!

صاح بكلمته الأخيرة وهو يدفعني بعنف، انكفأت على وجهي، أقعى بجواري وجذبني من رقبتي بقوة رهيبة، شعرت أن رقبتي بين كلابات حديدية وليست يد بشرية، خيل لي أني سمعت طقطقة عظامها.. قرَّب فمه من أذني وهمس:

- اوعى تفكر إن علي ولّا الدكتور حسن ممكن يخلصوك مني.

رقبتي في يده اليمنى، وبيسراه أمسك بمجلاتي واعتصرها عصرًا:

- ولا حتى مجلات العيال دي والصور المَرمِّية جوه في دولابك هاتعمل منك بني آدم.

لم أعد أحتمل.. بكيت كالأطفال، انهمرت دموعي مدرارًا، تملكني الفزع والخوف، انسحقتُ رعبًا، همهمت من بين دموعي وأنا أنشج:

- إنت عايز مني إيه؟

- شيراز.. لأ، فاهم؟

- إنت مين؟

- أنا السواد اللي هاتشوفه من هنا ورايح.. أنا الرعب اللي هايخليك تمشي تتلفّت حواليك.. أنا اللي هامحيك من الدنيا.

مد إصبعيه وضغط بهما على كرتيّ عيني من فوق جفناي بقوة رهيبة، تأوهت بصوت عالٍ فلم يبال.. وأكمل:

- اسمعني كويس.. عينك دي ما تجيش ناحية شيراز نهائي.. كنت عايز تقولها إيه النهارده؟ .. ها.. كنت عايز إيه؟ لو ده حصل تاني مش هايكون ردي غير إن الدنيا ما تسعناش مع بعض إحنا الاتنين.. وإنت عارف كويس أوي مين اللي هايفضل.. وعشان أثبتلك إني موجود..

أحكم يده حول رقبتي بقوة عاتية وجذبها للخلف.. أدركت ما سيفعله حين اصطدم بصري بقائم المائدة الخشبية:

لالالالالالا

وبكل قوة ضرب رأسي بالقائم.. رزعها رزعًا، دار رأسي بسرعة شديدة تلوث المنظر بالدماء، بقعة سواد تتسع أمام ناظري بسرعة بالغة، آخر ما أيته كان منظورًا له من أسفل قدميه.. كان يبتسم بقسوة جاءت من عالم نهنم.. من سقر.

أفقتُ صباحًا، وجدت نفسي في غرفة مظلمة راقدًا على سرير نظيف، كان لجو مفعمًا برائحة المطهرات والأدوية، هناك صوت ما يأتي من خلف الباب لوصد عليّ، صوت خطوات ومقاطع من أحاديث لا أتبين كلماتها أو قائليها، معرت بدوار مريع ورغبة عارمة في القيء، تحسست رأسي فوجدته مضمدًا، حطر لي أنني في مستشفى ما، أحسست أن كل عظامي تئِنّ وأنني مرهق بشكل شع، حاولت تناسي موضوع القِيء هذا وتحاملت على نفسي كي أقف، بمجرد لس قدمي الحافية للبلاط البارد صعد الحمض إلى حلقي وأفرغت معدتي على لأرض في قوة، استندت إلى الفراش ورميت بنفسي عليه بعد جهد جهيد، سمعت صوت الباب يُفتح وغمرني الضوء القادم من الخارج، ثم فقدت الوعي من جديد.

كان علي هو من نقلني إلى المستشفى، حكى لي أن مدام سارة جارتي كانت تمر أمام باب الشقة صاعدة إلى شقتها التي تعلوني، فسمعت صراخي يتلوه صوت ارتطام شديد، ترددتْ للحظات قبل أن تطرق بابي، ولما لم أستجب استدعتْ عم سعد البواب صارخة في هستيريا أن هناك شيئًا مريبًا يحدث بالداخل، فلم يكذّب خبرًا.. قام باقتحام الباب عنوة فوجدوني ملقًى على وجهي وأنزف بشدة، في هذا التوقيت تحديدًا ارتفع رنين هاتفي المحمول، وكان الطالب هو علي فردت مدام سارة على الفور وأخبرته بما حدث، وهكذا تم نقلي إلى هنا بعدما جاءني علي مسرعًا بسيارته، بعدما اطمئن على حالتي أرسل عم سعد إلى النجّار ليأتي به كي يصلح الباب وأعطاه المال اللازم لذلك، تلقيت زيارة جماعية من علي ومها وشيراز و.. وياسين، كانت زيارتهم فاترة ورسمية جدًا، إلا أن ياسين أخبرني بمنحي إجازة مرضيَّة حتى يتم شفائي، تحاشيت النظر لشيراز ليس خوفًا من حازم أكثر من كونه خوفًا عليها هي، الله وحده يعلم مدى قدرة حازم هذا على الإيذاء، ظللت أسبوعًا تحت الرعاية الطبية، قتلني الملل وكنت أنتظر زيارة علي اليومية.. لم أفصح له عما حدث وادعيت منذ الزيارة الجماعية أنني تعثرت واصطدم رأسي بالمائدة، بدا علي متشككًا خاصة بعد موضوع سماع صراخي

هذا، ولكن يبدو أنه آثر أن يؤجل الحديث عن ما حدث حتى أشفى تمامًا، أخبرني -في خبث- أن سارة هذه شابة جميلة جدًّا وأرملة تعيش وحدها، فكيف لم ألحظ وجودها طوال هذه المدة، ولما سألته كيف عرفت أجاب بجملة بسيطة جدًّا: إديت عم سعد عشرة جنيه، فابتسمتُ، كانت الأيام تنقضي ما بين النوم والقراءة -مجموعة روايات أحضرها لي علي- أو متابعة التليفزيون بملل، يبدو أن البلاد على وشك موجة ثانية من الثورة، وبدأ اسم السيسي -وزير الدفاع- يتردد كثيرًا في الإعلام، يقولون: إن الشعب قد علّق أماله هذه المرة على مساندة القوات المسلحة، لم أهتم كثيرًا بما يذاع ولم أستطع التركيز في قراءاتي بسبب الدوار المتكرر، والحمد لله أنه صار أخف وطأة من ذي قبل، رأيت داليا لأول مرة حين اصطحبها علي لزيارتي، كانت رقيقة وجميلة تحمل باقة رائعة من الورود، ولكني لاحظت أن ثمة خطبًا ما في علاقتهما، وهو شيء عادي جدًّا ما بين المحبين فلم أشأ أن أزعجه بسؤالي، واكتفيت بتهنئتهما بالخِطبة القريبة إن شاء الله، فليحمد الله على أنه ليس في مكاني، مهدد بالقتل لأنني أحب! مر الأسبوع وتعافيت خلاله، كتب لي الطبيب تصريحًا بالخروج بعدما اطمئن على مخي بعمل كثير من الأشعة، علمت أن ياسين هو من تكفل بمصاريف علاجي كاملة على أن تخصم

على أقساط من راتبي، في شقتي كان علي هو من أوصلني وظل معي، أول ما لاحظه كان بعثرة المجلات على أرضية الصالة.. على الأرجح أن عم سعد لم يُرد أن يمس أي شيء دون إذني، نظر لي متسائلًا فحكيت له كل شيء على الفور، بدا منزعجًا جدًّا واقترح إبلاغ الشرطة، رفضت بحسم حيث إن حازمًا هذا قادر على الوصول لي وقتما شاء وأينما شاء! ولو أراد بي موتًا لفعل قبل أن يتحرك أمين شرطة واحد من مقعده، عاد فاقترح أن أصارح شيراز بكل ما يحدث وأسألها عن كنه هذا الحازم فرفضتُ أيضًا خوفًا من أن يؤذيها أو يتسبب لها في متاعب هي في غنى عنها، تنهَّد مستسلمًا، وطلب مني أن نزور الدكتور حسن فور استعادتي للياقتي كاملة.

(٢٢)

اليوم وصلتني الرسالة الثالثة، حين استيقظت صباحًا وجدتها ملصقة على مرآة الحمَّام بالشريط اللاصق الذي كنت أستعمله لإعادة إحياء مجلاتي، مددت يدًا راجفة لأنتزعها وأقرأ ما فيها.

"اللي حصل ده كان قرصة وِدن، والدكتور حسن مش هايوصَّلك لحاجة.. على فكرة إحنا قربنا قوي"

حازم

طوى الدكتور حسن الورقة وشرد بعيدًا، لا أأعلم لماذا تعلق كل سكنات هذا الرجل بذهني، وكأنه سهم ينطلق إلى الناظر إليه فينغرس في ذاكرته للأبد، تبادلتُ نظرات قلقة مع علي فأومأ لي بأن اصبر قليلًا، كنا جلوسًا في مكتب الدكتور حسن بعيادته، استدعيت علي هاتفيًّا بمجرد قراءتي للرسالة الأخيرة فجاءني مساءً وأقلني إلى هنا في سيارته، كانت لي ثلاثة أيام على سبيل عطلة النقاهة ولكن يبدو أن أيام الراحة تتمنع .عليَّ، تأملت ما حاق بي منذ وفاة أبي.. طيف أبي نفسه وحب مبتور قبل أن يصل بين طرفين، حب فاشل

ومهدد بالقتل، شكوك في قواي العقلية وحالة تخبط كادت أن تتحول إلى بارانويا حادة، وأخيرًا هذا المعتوه الذي يريد قتلي لمجرد التأتأة أمام حبيبتي التي بدت لا تطيقني أصلا، قُطع حبل أفكاري على صوت الدكتور حسن:

- فيه فترات تانية عدت عليك من غير ما تحس؟

- لا يا دكتور.. ما أظنِّش.

- وليه بتتكلم بثقة كده؟

جمّد سؤاله الدم في عروقي وقد فهمت ما يقصده، هل يمكن أن أكون فاقد الإدراك لفترات زمنية معينة دون أن أعلم عن هذا شيئًا! لمحت نفس التساؤل في عين علي فقال د. حسن:

- شخص ما يعرف عنوانك ومواعيدك وأسرارك.. قادر يدخل بيتك وقت ماهو عايز.. ده زي ما يكون عارف أنت بتفكّر في إيه، يعرف كل ده منين؟

ثم أضاف وهو ينظر مباشرة إلى عيني: لازم نعرف إيه اللي بيحصل بالظبط خلال فترات الإظلام.

هنا تساءل علي بقلق: قصدك إيه يا دكتور؟

- ما فيش مصدر للمعلومات دي كلها غير رامي نفسه، وإحنا مش عارفين بالظبط أثناء الحالات دي بيكلِّم مين ولا بيعمل إيه.

ذُهلت: يعني أنا اللي بقوله على كل حاجة.

أجاب د. حسن ببساطة: ممكن جدًّا.

صحت معترضًا:

- أنا لا أعرفه ولا عمري شوفته قبل كده.

- ده بالنسبة لوعيك الحاضر.. أما بقى في حالة الإظلام.. الله أعلم.

ابتلعت ريقي بصعوبة ورددت خائفًا: يعني ممكن يقتلني فعلا؟

- يمكن عشان شايفك سلبي ومش قادر تقاومه تمادى في تهديداته ليك، وطبيعي جدًّا إن لو حد هدد حياتي أتحول لدرجة من الشراسة قدَّامه.. ده عُمرك يا رامي.. حياتك.

نظرت لعلي فوجدته ينظر إليّ بدوره، ارتسم على وجهينا تعبير واحد.. مفعم بالحيرة العاجزة.

عدتُ وحدي سيرًا على الأقدام بناء على طلبي الذي استجاب له علي بعد ضغط مني، كان مترددًا في أن يتركني ويذهب هو بسيارته ولم يفعل إلا بعدما

أقسمت له على مهاتفته لو حدث أي شيء مهما كان بسيطًا، مشيت غارقًا في شرودي، تذكرت نصائح الدكتور حسن، من الغد عليّ أن أحمل Notebook أدوّن فيه كل ما يحدث لي يوميًّا وبالتوقيت وأمام كل حدث أكتب شعوري نحوه، كان يريد أن يحدد مواعيد دقيقة لحالات الإظلام، وهل تحدث بطريقة عشوائية أم منتظمة أم كلما تعرضتُ لظروف نفسية معينة، بدا لي تفكيره منطقيًّا ومنظمًا لا ينتج إلا عن أكاديمي حاذق و.... صوت احتكاك الإطارات بالأسفلت شق سكون شرودي فتنبهتُ لما يحدث، حِدتُ عن الطريق المخصص للمشاة فوجدت نفسي-وجهًا لوجه أمام سيارة تمرق نحوي، على الفور تحركت نحو جانب الطريق ويبدو أن قائد السيارة فقد أعصابه فمال ناحيتي أكثر، السيارة زادت من سرعتها فقفزت في الهواء كما يرتمي حارس المرمى على كرته، بالكاد تفاديت الاصطدام لكني زحفت على الأسفلت نحو مترين على الأقل، فر قائد السيارة هاربًا ومحدثًا ضجيجًا أكبر، تجمهر الناس حولي للاطمئنان عليّ ومساعدتي على النهوض، أنا أكره لفت الأنظار.. أكرهه، لكنني لم أهتم بكل هذا الضجيج من حولي ولا بالألم الذي سببته جروحي، كنت مأخوذًا مبهوتًا متقطع الأنفاس، لقد رأيت السائق.. كان هو.. كان حازم.

- إنت إزاي تعمل كده! ده كان ممكن يموت.

صاحت بها شيراز منفعلة إلى أقصى حد، التفت إليها معظم الجالسين بالكافيه، بدا حازم هادئًا وصارمًا لا يبالي بثورتها:

- أنا قُلت لك قبل كده إن اللي يقرب لك يبقى بايع نفسه.

- إنت مجنون!

- مجنون مجنون، بس بحبك!

نفختْ زفيرًا ملتهبًا، حاولت السيطرة على أعصابها: مش بالطريقة دي، إيه.. هاتبقى قاتل؟

تحولت ملامحه إلى شراسة لم تعهدها فيه من قبل، كان جموده باردًا كالثلج:

- أنا عارف أنا بعمل إيه كويس.

- إنت مش عارف أي حاجة.. ولو حصل أي شيء تاني من الجنان ده مش هاعرفك أصلًا وكل واحد يروح لحاله.

تمهل لثوانٍ حاول فيها استيعاب ما قالته، بالأحرى كان يحاول السيطرة على غضبه، اختلجت عضلة ما في وجهه، تنفس بعمق وأغمض عينيه، حين فتحهما كانت نظرته رهيبة ارتعدت لها فرائص شيراز.

***

حين دخل ياسين البنك صباحًا بصحبة سلمى الصغيرة صاحب دخوله كثير من عبارات: ألف سلامة عليك، واستفسارات عما حدث، كان مضمد اليد ويعرج قليلًا، توقف أمام بلوك مكاتب شيراز وزملائها، على الفور جرت سلمى إلى أحضان شيراز وقبّلتها على خدّها، بدت شيراز مرتبكة وشاردة ولم تُظهر حنانها المعتاد تجاه سلمى، ظهر القلق على وجه مها وهي تستفسر عما جرى ولحق بها علي في تساؤلاتها.

- وقعة بسيطة كده.. رجلي اتلوت، معلش هاسيب سمسم معاكم النهارده.

على الفور قالت مها: سمسم في عنينا يا أستاذ ياسين، المهم طمِّنّا عليك.

ذهب لمكتبه وسط السلامات والمجاملات، اطمئن علي لأنه لا يسمعه وقال بسخرية:

- هو البنك كله هايبقى عاهات ولا إيه؟!

لكزته مها ضاحكة وهي تشير إلى سلمى الجالسة في أحضان شيراز: هششش.. البنت.

(٢٣)

تلقَّتِ اليوم مكالمة من سها، زميلة الدراسة الجامعية والسبب الرئيسي في عملها بالبنك، بعد الترحيب والديباجة المملة لاستعادة ذكريات صداقة قديمة جاء السؤال الذي تخشاه كثيرًا، هو أنتِ لسه مش اتجوزتي؟ وبغض النظر عن (سَهْوكِة) البنات باستخدام كلمة (مِش) قبل أي فعل لنفيه كأن تقول مثلا: مش أعرف أو مش قُلت، فقد كان سؤالها هذا هو لُب الجُرح القديم لدى مها، ما هو شعور الأنثى التي يريد كل من حولها مضاجعتها فقط؟ كيف لها أن تقابل مجتمعًا ذكوريًّا كل ما يريده هو إفراغ شهوته بين فخذيها بعد العبث الغشيم بمفاتنها، هي هكذا في أعينهم.. وسيلة للمتعة ومن بعدها خادمة لحضرة جناب سعادة الرجل، ماذا تنتظر من مجتمع نهش الكبت الجنسي أوصاله وصار محركًا أساسيًّا لوعيه ولا وعيه كذلك، ثم يأتون بعد ذلك ويقيِّموا الشرف ويقيسوه بالأعضاء التناسلية، والأحقر أن هـذا المقياس ينطبق على النساء فقط! فالرجـال لهـم الأرض وما عليها، يدخنون الحشيش ويسرقـون ويقتلون، يغتصبون ويضاجعـون نساءهم كالبهائم دون أن يقدموا لأنفسهم، يوشون ببعضهم البعض.. يتحرشون ويسبون ألف دين وملة طوال اليوم.. يحنثون بالوعود ويبيعون أقرب من لديهم من أجل

المصالح الشخصية.. يرشون ويرتشون.. ثم بعد ذلك كله يجعلون من أنفسهم قيِّمين على الدين والعباد، جعلوا منها عاهرة وفاجرة ووضعوها في خانة المستباح لمجرد أنها لا ترتدي الحجاب أو أن ملابسها لا تعجبهم، الفضيلة عندهم نوع من الملابس تُخلع لهم وحدهم وعلى أسِرَّتهم، والحقيقة أن السبب الوحيد لاستباحتها هو أنها لم تختر واحدًا منهم يتملّكها فيقيها شر الآخرين.. الآخرون الذين لا يختلف عنهم في شيء، لم يفهموا أن الشرف هو أن تكون شريفًا في كل شيء.. في أفكارك ووعودك وعملك وعلاقاتك وحفاظك على كرامة الآخر حتى وإن كان أقل منك في كل شيء، لم يفكر فيها أحد كشريكة حياة، كعقل قادر على مواجهة مستقبل والإعداد له، كحصن وسكن ومشاعر تفيض بالحنان والأنوثة.. كامرأة قادرة على إنشاء أجيال وقيادة أسرة هي وحدة تكوين المجتمع ككل، ماذا عن أحلامها الوردية بمملكتها الخاصة بعيدًا عن هذا الحي القذر المليء بمن يداعبون أعضاءهم الذكرية كلما مرت أمامهم.. وأما عن الآخرين.. فلهم نفس الرغبات ولكن مغلّفة بقناع الرقي الزائف.. في النهاية الغرض واحد وإن تعددت وسائل محاولة الوصول إليه، هناك نمطان في حياتها للرجل، إما واحدًا من أبناء حيّها ذي الوجه الكالح الذي يطفح بالجهل والغباء والسوقية واللزوجة والعداء لكل ما هو خارج بيئة السّرسَجيَّة، وإما واحدًا من الوجوه اللامعة الناعمة الذي يطوي

شهوته خلف التحضر والرقي وتصرفات الـ Gentleman وهؤلاء تقابلهم في محيط عملها، كلهم يريدونها بقميص نوم مفتوح فارجة الفخذين لا أكثر من ذلك، وبناء على تلك الخلفية من حياتها جعلت لنفسها فلترًا أو مصفاة انتقاء لتحديد الهدف ودفعه دفعًا إلى الزواج، كانت تهدف بذلك إلى بضعة أشياء، أولًا: الهروب من بيئتها ومستنقع الوحل الذي تحيا فيه وأمها، ثانيًا: الحماية والهروب من الخوف المسيْطر على سكناتها وتحركاتها بالعيش في كنف رجل يريدها زوجة وربة أسرة.. يحترم كيانها ويعاملها كإنسانة ستكون هي عِرضه وكرامته ولحمه.. الأمان.. الطمأنينة. ثالثًا: أن ترحم أمها -ونفسها- من أعباء الحياة الشاقة والممتصة لدمائهما، وتلخص بحثها في ثلاث كلمات.. الاحترام، والاحتواء، والمال، بعد هذا هي قادرة على أسره وجعله يهيم بها ويتدله في عشقها، انحصرت خياراتها في ثلاثة أشخاص لا غير هم الوحيدون الذين نجوا من فلتر الاستبعاد، علي.. ياسين.. والخجول غريب الأطوار! امتاز كل منهم بشيء معين، الأول: هو أوسمهم.. مثقف ومتفتح لكنه لا يستطيع أن يتكفل بها وبأمها.. صحيح أنه يمتلك سيارة ولكنها سيارة والده الذي تقاعد عن القيادة، فتنازل عنها لابنه.. على العموم مستقبله يبدو جيدًا وراتبه يؤهله لاجتياز غابة مصاريف الزواج الشائكة، الثاني: هو أغناهم على الإطلاق وأعلاهم مركزًا

ولكنه أكبر عمرًا وأرمل ولديه ابنة.. وهذا لا يمثل لها أية مشكلة إذا ما نفذ لها ما أرادت من الزيجة، الثالث: يمتلك شقة وسيارة ورثهما عن والده وهو يتفوق على علي في هذه النقطة ولكنه يبدو مضطربًا ومرتبكًا طوال الوقت.. دعك من أنه يخفي أمرًا ما يجعله غريب الأطوار أحيانًا.. هي حاولت التقرب له حين طلبت منه توصيلها ولكنها اصطدمت بهذا الحيوان المدعو رمضان والذي يطاردها بنظراته الوقحة.. وهو أيضًا مفضوح في حبه لشيراز ولكنها قادرة على إزاحة المنافسات حين تقرر أنه سيكون لها، عندما أعلن علي أنه قريبًا سيحتفل بخطبته تقلصت هذه القائمة الثلاثية إلى اسمين فقط، لا بأس.. الآن هي ستحاول أن تمسك العصا من المنتصف، وتنصب شباكها حول الاثنين معًا، المدخل إلى ياسين هو سلمى ابنته، ويجب إظهار حنان الدنيا نحوها، غريب الأطوار الطريق إليه سيكون مشاركته حزنه ومحاولة استكشاف ما به والمساندة المعنوية له.. وأما عن الشيء الذي يتساويان فيه.. فهو أنهما لن يصمدا أمام أنوثتها الطاغية إذا ما قررتْ ذلك.

***

في طريقي من مكتب ياسين إلى بلوك المكاتب أخرجت الـNotebook وكتبت:

حاسس إني مش طايق الراجل ده، عايز ياخد مني حبيبتي ومش مأمن له.. الساعة حوالي تسعة ونص الصبح"

قابلت علي متجهًا لمكتبه وهو يحمل كوب شاي بلاستيكيًا: روميو.. صباح الفل، ابتسمت له من وراء تجهمي وصافحته.. كتبتُ:

"علي صاحبي الوحيد.. خايف أقوله على موضوع حادثة العربية، هو أساسًا مفكرني مجنون.. لازم أخليه يشوف بعينه.. نفس الساعة"

مها وشيراز كانتا جالستين إلى مكتبيهما، ابتسمت شيراز لي بعتاب واضح، لم أفهم، المفترض أني من له حق معاتبتها بسبب ما فعلته، لا هي.. كتبتُ:

"شيراز.. أحلى حاجة في عمري، بحبها جدًا.. جمالها زي اللبن الصافي.. وهي فعلًا أحلى من اللبن الصافي.. نفس الساعة"

قالت مها وهي تزيح خصلة من شعرها بميوعة ودلال: صباحك سكر يا رامي.. حمدلله ع السلامة، رددت عليها بابتسامة مفتعلة.. كتبتُ:

مها.. بمليون وِش، لازم أمسك نفسي وأنا بكلمها.. أنوثتها قاتلة، وفي نفس الوقت حركتْ جُوَّايا رغبة طفولية بإن أشوف بسببها الغيرة في عيون شيراز.. نفس الساعة"

لوتْ مها عنقها لترى ما أكتب فأخفيته عنها بسرعة، تساءلتْ عما أكتبه وهي تصطنع عدم الاهتمام فافترّ ثغري عن ابتسامة تخرس فضولها:

- ولا حاجة، دي أسماء أدوية افتكرتها.. هاجيبها وأنا مروّح.

طوال اليوم كنت أحاول إخفاء توتري وارتباكي، بالطبع كففت عن تدوين مشاعري منعًا للفضول الأنثوي، حوالت كثيرًا إخراج نفسي من عاصفة الأفكار السوداء التي تنتهك خيالاتي، كيف أتعامل مع موجودات وحقائق عالمي وأنا مهدد بالقتل! مهدد بأن يختفي هذا كله في غمضة عين، فجأة سيكون لا وجود لشقتي أو عملي أو سيارتي أو حبيبتي أو صديقي علي أو مجلاتي الممزقة أو مشاعري أو صندوق صوري أو أحلامي أو أحجيتي أو حازم نفسه، فكرت بسخرية مريرة في أنه لو نفذ تهديده وقتلني سيكون هو من يتلاشى لا أنا، لن يكون له وجود.. سأذهب إلى القبر بجوار أبي وسيختفي هو وتهديداته وغيرته القاتلة بغير رجعة، هكذا ببساطة.

مر اليوم بعد معاناة ذهنية مرهِقة، حاولت أن أبدو مثلهم تمامًا، وأن أتفاعل مع العملاء راسمًا ابتسامة رسمية عنوانها: اذهب إلى الجحيم سيدي.. أنت والبنك وياسين وحازم والعالم بأسره، لم يعد يهمني شيء بعدما فقدت معنى الحياة.. نبض قلبي مقابل حياتي ويا له من جنون، في شقتي كنت مكتئبًا جدًّا وتملكني شعور من الملل لا الخوف، أريد أن ينتهي كل هذا وليحدث ما يحدث ولن أهتم، أرجوك سيدي القاتل والمغتال لكينونتي أن تفعلها بسرعة ودون صخب، أرجوك خلصني من هذا الملل والتوتر المشوب بالشك في قواي العقلية.. أرجوك، أمسكت بالقلم من جديد وشرعتُ أخط بعصبية:

" رجعت من الشغل..استحميت.. أكلتُ.. نمت.. صليت.. قعدت على النّتّ.. ملل ملل ملل، الساعة عشرة مساء.. ملحوظة: الله يخرب بيتك يا دكتور حسن على بيت علي على بيت حازم على بيتي أنا شخصيًّا"

ثم فطنت إلى أنني أتعامل مع الأمور بخفة لم أعتدها في نفسي، بل بسخرية أيضًا، خمنت أن يكون هذا جزءًا من قراري القدري بالاستسلام الذي اتخذته منذ وفاة أبي، أو أن أكون.. تبًّا.. أنا لم أعد أعي شيئًا، نهضتُ إلى غرفتي، فتحت الدولاب وأخرجتُ منه صندوق الصور، حملته إلى الصالة ووضعته على أرضها

فـوق السجادة السميكة، افترشت الأرض أمامه وأسندت ظهري إلى الأريكة وفتحته، لفت نظري شيء ما، داخل الصندوق وجدت مظروفًا مغلقًا لم أره من قبل.. أمسكت به وكأنني أمسك بثعبان سام، قلبته فوجدت اسم حازم مكتوبًا عليه بخط فلوماستر عريض وبجواره هذا الشكل ☺

نفس الخط المنمق.. خطه، تثاقلت أنفاسي وأنا أمد أصابعي لفتحه.. كان مليئًا بصور فوتوغرافية حديثة.. أخرجتها من المظروف لأرى محتواها فقد تعمّد وضع وجهها إلى أسفل، الصور كانت......!

كانت نائمة في حضنه على مركب نيلي.. كان يقبّلها.. كانت ذائبة بين يديه.. كانت تنظر له متيّمة وهما يتقاسمان سماع أغنية ما من طرفيّ سماعة واحدة.

مجموعة أخرى التقطت في سفح الهرم.. تحبه.. تحتضنه.. يُقبّل يدها.. تهيم به.. تعشقه.. لكل صورة قصة وحياة ومشاعر خاصة بها.

هو وشيراز.. كان كما فرض نفسه على أنفاسي، واثقًا جدًّا.. وسيمًا جدًّا.. أنيقًا جدًّا، وكان يسلبني حبيبتي، ينتزع قلبي.. يسحقني.. يصهرني.. يقتلني.. يفنيني، وجدت نفسي في غرفة أبي، لا أعلم متى وقفت ومتى

دخلتها، روحي تُسحب مني.. أنفاسي تضيق.. دموعي تضرب بصيرتي وبصري بمطارق مالحة صدئة، جف حلقي.. صرختُ داخلي دون صوت.. هلم.. تحرر من جمودك.. اصرخ.. ابكِ.. العن، ندت عني آهة خافتة ومريرة وباكية.. خررت على ركبتيَّ.. انفجرت دموعي ومعها خنوعي وضعفي وعجزي.. نهنهتُ.. تشنجتُ.. طفحتُ ألمًا، ثم رقدت على فراش أبي بلا حراك.. بلا صوت، رفعت رأسي فرأيته ينظر لي بأسًى.. أبي كان هناك.

***

كان علي متألقًا وكانت داليا تتلألأ كضوء القمر، طفتْ القاعة على أمواج الموسيقى والأضواء بعدما افتتح حفل الخِطبة بأسماء الله الحسنى وعقبها الشيخ إمام بصوته الملتاع واصفًا كيف ناح النوَّاحون لأجل بقرة حاحا، هاجت القاعة وماجت ورفعا علي وداليا لافتة قماشية كبيرة كُتب عليها كلمة (تمرُّد)، أثار هذا حفيظة البعض وأشعل حماس معظم الحضور، تعجبتُ كون السياسة عرفَتْ طريقها إلى هنا أيضًا.. حيث تتويج رحلة حبهما بمنح كل منهما الآخر صك ملكية روحه.. ليس هذا وقته، تدريجيًّا عاد الحفل لمساره الطبيعي واندمج الكل في الاحتفال بالعروسين، ثم جاءت افتتاحية البيست برقصة هادئة طوَّق فيها علي

وسط داليا بذراعيه بينها استكانت راحتيها على كتفيه، يهمس لها بمشاعره وهي تقابل همساته بابتسامة خجل، تأملتُ الحضور.. شيراز بفستان السهرة الأسود الأنيق جالسة بصحبة أبيها، انتزعتْ شفتاها حواسي من سيطرة الأجواء المحيطة.. كم مرة قبَّلَكِ؟ كم مرة تهاويتِ في أحضانه؟ وهاتان اليدان.. كم مرة نامت في كفه وكم مرة طوقتْ رقبته؟ كم مرة ضم جسدك إليه بقوة؟ كانت بصماته عليها واضحة جلية لعقلي.. حادة تخترق قلبي المحترق.. ظافرة تُطبق على روحي فتنز نار السموم، أشحت بجروحي بعيدًا وأجبرت نفسي على الاستفاقة، أخفيت مرارتي خلف قناع سعادتي بصديقي.. قناع مهترئ تكفيه نسمة عليلة كي تُفتّته، هربت من كياني المصوّب نحوها بتأمل الزحام، بجوارها كانت تجلس مها.. ولم يكن هذا حدثًا عاديًا أبدًا، فجلسة مها بفستناها الأحمر الملتهب والملهِب مُجسِّمًا أنوثتها المتبخترة علنًا جعلتها محط أنظار كل رجال الحفل تقريبًا.

"ودلوقتي أي Couple حابب يشارك عرايسنا الرقصة.. أي اتنين متجوزين مخطوبين مرتبطين يتفضلوا معانا على البيست"

عدلت من وضع سترتي على جسدي واتجهت إلى مائدة شيراز بثقة، كانت تبتسم لي.. تضحك وتنذرني من أبيها بعينيها في نظرات خَجْلى ، اقتربت منها،

انحنيت وأنا أنظر لها مبتسمًا، مددت يدي إلى مها وحوّلت نظرتي تجاهها راسمًا ابتسامة على وجهي حاولت أن أجعلها رقيقة.

- ترقصي معايا؟

بأناقة أمالت مها رقبتها وفتحت كفها موافقة، أمسكت يدها واقتدتها برفق إلى البيست، ذهول ارتسم على وجه شيراز فلم أعبأ، تقابل حاجبا علي باستغراب وتوقف لثوانٍ عن رقصته الخاصة، خطفت نظرة سريعة تجاه قاتلتي فوجدتها حانقة، أحطتُ خصر مها وضممتها إلى جسدي.. وبدأتُ الرقص.

(٢٤)

فتحتُ باب شقتي بهدوء ودخلت، امتدت يدي الحرة لتضيء النور، يدي الأخرى كانت تطوق يد مها وتشابكت أصابعي مع أصابعها، دخلتْ ببطء متهيبة المكان والموقف، كنت قد قررتُ أن أترك لرغباتي المكبوتة العنان ما دام الكل فاسدًا، طلبت منها توصيلها إلى أي مكان تريده بعد انتهاء العمل فرحبت فورًا، تعمدت أن أصحبها إلى سيارتي أمام أعين شيراز، ولما استشعرتُ قربها المعجون بفوران هرموناتي ومضت الفكرة المجنونة في عقلي ووضعتها على الفور موضع التنفيذ، كنا قد استغرقنا في أحاديث تافهة ولف ودوران حول مشاعرها ومحاولاتي عدم التفوه بأي شيء يلزمني تجاهها بأي شيء، حين أدركتْ أنني أتخذ طريقًا غير المعتاد لم تعترض وأبدت ميوعة رافضة شجعتني على الإصرار أكثر، ادعيت أني بحاجة إلى الفضفضة بعيدًا عن أعين الناس اللزجة.. سكتتْ فاعتبرت سكوتها موافقة.

- نورتي.

ابتسمتْ..

- البيت مكركِب، بس شقتك حلوة.

- أصلي مش بحب أرتب والحاجات دي.. بكسِّل.

- كده بقى أطمئن إن مافيش واحدة في حياتك.

ضحكنا بافتعال، كان الجو مشحونًا بالتوتر أو أنها رهبة التجربة الأولى.

- أديكِ أنتِ قُلتِ.. تشربي حاجة ساقعة؟

أومأت موافقة أن لا بأس فأحضرت ما اقترحته من الثلاجة، وجدتها قد خلعت حذاءها وثنت قدميها أسفل ردفيها مستريحة على الأريكة، انحسرت تنورتها عن ركبتيها فظهر ما حرك شهوتي.. تكور ثدياها وتهدلت خصلات شعرها المتموجة على وجهها، من فتحة قميصها ظهر بداية فرق نهديها، اقتربت منها وجلست بجوارها، مدّتْ يدها لتمسك بعلبة المياه الغازية فأحطت أصابعها بكفي، لمستي هذه المرة كانت مفضوحة، ثبتت عينيها في عيني ونطقت حروفًا مبحوحة وكأنها تتعمد إثارتي:

- ماكنش باين عليك إن عينك مني.

ابتلعت ريقي بصعوبة.. أفقت من شفتيها بعسر عسير، حاولت لملمة أعصابي:

- فيه حاجات كتير بتطلع عكس ما إنتي شايفاها.

واستعدت لقطات شيراز في أحضان حازم، للحظات طفت مرارة جراح روحي لتطغى على الحاضر الحارق لذكورتي.. وكأنها أحست بأني سأفلت من تأثيرها فاستعادتني سريعًا:

- إنت كده هاتشككني فيك.

لفحت أنفاسها الساخنة وجهي فعدت على الفور.

- ما عنديش حاجة أخبيها عنك.. أنا على طبيعتي.

- ده اللي شدني ليك.. عارف.. لما رقصت معايا كنت حاسة بكل حاجة جواك.

هنا تهاوى السد، تناولت العلبة من يدها ووضعتها على المائدة فسقطتْ لأني لم أكن أنظر ليدي، انهلت على خديها وشفتيها بقبلاتي الحارة المتلهفة، كمراهق أتيح له الجنس لأول مرة، مسحت رقبتها بيدي وقبلاتي لا تنقطع، اعتصرت ثدييها بقوة غشيمة، امتدت يدي لتفتح أزرار قميصها متوقعًا أنها ذابت وأن جسدها أصبح طوع شهوتي الداهسة والمهينة لجسدها، فجأة دفعتني عنها بعنف صائحة:

- لأ يا رامي!!

تراجعت عنها لاهثًا: لأ ليه؟!

- مش عايزه حاجة في الحرام.

حرام! وكأن رفضها هبط فوق رغباتي كشلال من قطع الثلج.. بارد ويدمي.. ما هذا الذي كنت أفعله بها.. كيف واتتني الجرأة على هذا، لململَمتْ شعرها معتدلة في جلستها وهي تشد ملابسها على جسدها.. تستر نفسها عن حيوان جائع كنته للحظات.

- أنت فاكرني إيه؟

مطأطأ الرأس جاوبتها: مش فاكرك حاجة.

- بتحبني؟

سألت بلهفة.. سألت بقوة.. سألت كمن يقرر مصيرًا لا رجعة فيه، رفعتُ عينين آسفتين نحوها وأجبت بتردد:

- لأ

سَكَنَتْ قليلا وكأنها تمتص نفيي المهين لأنوثتها، أي رجل هذا الذي يخبر فتاة في وجهها أنه لا يحبها! حتى وإن كانت لا تحبه.. حتى وإن كانت لا

تريده.. هذا باختصار معناه الوحيد: "عفوًا أنا لا أراكِ أنثى"، وكيف لهذا الرفض أن يُنطَق أمام أنثى مثلها.. تنمرتْ:

- جبتني هنا ليه؟ عجبك جسمي قلت تاخد منه حتة؟!

- أنا مش كده.

- أُمّال بتلعب بي.. لما إنت مش بتحبني بتعمل كل ده ليه؟

نظرت لها بقوة غاضبة.. كنت أرى فيها -وكل النساء- سقوط شيراز:

- إنتي جيتي معايا هنا ليه؟!

فجأة ودون سابق إنذار تحولت ثورتها إلى هشاشة.. ضعف.. انسحاق، طفت دموعها على مقلتيها:

- جيت عشان بحلم.

- تحلمي!

- آه بحلم.. بحلم براجل واحد يكون شاريني بجد.. أنت عارف يعني واحدة زيي تتمرمط في المواصلات واللي طالع واللي نازل يتلزق فيها.. عارف يعني واحدة زيي تكون مسؤولة عن أمها ومصاريف البيت..

تستحمل رزالة ده وسخافة ده؟ نفسي في حد يكون عايزني أنا مش عايز جسمي.. حد يخلصني من الهم اللي أنا عايشة فيه ولو هاكونله خدامة تحت رجليه.. بس بالحلال.. عايزه حد يحس بيّا.. يحتاج لي.. شايفني زوجة مش واحدة تريحه وتبسطه في السرير.

كانت هذه ضربتها القاضية.. نشيجها.. دموعها.. نهنهات العبرات الملتهبة في معاناة جسّدتها الكلمات، جثوت على ركبتيّ وأمسكت يدها:

- مها أنا آسف.. صدقيني أنا مش عارف عملت كل ده ليه.. سامحيني.

مسحتُ دموعها بيدي وختمت اعتذاري بقُبلة على ظهر يدها.. قبلة احترام.

ربتتْ على ظهر كفي الممسكة بيدها.. وابتسمتْ:

- أنا هاعتبر اليوم ده ما حصلش.. خليك زي مانت يا رامي.. ما فيش حاجة تستاهل إنك تتغير للأسوأ.. صدقني.

قبّلت جبينها وكأني أؤكد اعتذاري.. قُبلة كانت تأكيدًا على نقائها.. وعلى بقائي أنا داخل دائرتي المظلمة.

***

تسارعتْ خطواته للحاق بها، انتظرها طويلًا وما أن لمحها حتى هُرع إليها، صُدمت حين اصطدمت به بانتظارها عند مدخل عمارتها.. تجاهلته وواصلت طريقها، أمسك يدها ليستوقفها:

- شيراز.. ممكن تسمعيني.

استدارت غاضبة.. قررت أن تقسو.. وقبل أي شخص كانت تقسو على نفسها:

- أنا مش عايزه أسمع منك حاجة.. ولو سمحت الكلام بيني وبينك يبقى رسمي.

نفضتْ يدها من يده.. كان مُصرًّا:

- شيراز، أنا بحبك.

دمعت عيناها:

- اسكت.. مش عايزه أسمع منك الكلمة دي تاني.. ولا حتى تنطق اسمي.. ممكن؟

"فيه حاجة يا ست هانم؟"

صاح بها عوض البواب وقد لاحظ أنها في مشكلة ما.. كان ينظر منذرًا حازم من أن يتمادى.. نقلت شيراز بصرها بينهما:

- ما فيش حاجة يا عم عوض.

ونظرت بقوة تجاه حازم:

- ولا إيه؟

تنفس بعمق كعادته كلما حاول السيطرة على غضبه:

- ماشي يا شيراز.. ماشي، أنتِ اللي اخترتِ.

وغادر مسرعًا.. جلسَتْ على الدَّرَج منهارة تحبس دموعها بشق الأنفس.

(٢٥)

"إنت إزاي يا بني آدم تخبي عني كل ده!"

كنت وعلي جلوسًا في أحد مقاهي وسط البلد، طلبت منه متعمدًا أن نأتي إلى هنا.. ربما هو إصرار على مواجهة ما أخافه.

- اللي حصل.. وبعدين أنت مش فضلت تقول لي: صاحب واحدة واخرج للدنيا.. أديني اتنيلت!!

- آه، بس ما قُلتش خُدها الشقة، ومش لاقي غير مها اللي وشك في وشها طول النهار!

- هو أنا أعرف حد غيرها.

- يا عم اشقط واحدة من ع النت.

- أشقط! فيه حد مثقف يقول اشقط واحدة؟

- طب إيه رأيك بقى إن الشقط بقى اتجاه ثقافي دلوقتي.. المهم شيراز لازم تفضل مش عارفة حاجة عن الموضوع ده.

كتمت ابتسامتي من سخريته، وربما اتخذت منها علة للفرار من ألم شيراز المحفور والآكل لما داخلي وقد قرر جُرحه ألا يندمل.

- علي.. أنا خلاص شيلت الموضوع ده من دماغي.

تنهّد في صبر: ده خوف عليها من حازم؟

- لأ حتى لو ما فيش حازم أنا خلاص.. هي أصلًا مش بتحبني.

- مش بتقول إنها بتغير عليك.

- ما بقتش فاهم مواقفها دي كانت إيه بالظبط.

- اللي بيحاول يفهم الستات زي اللي بيحاول يعض ودانه، أنت تريّح نفسك وتقولها كده وش.. ويا آه يا لأ

أخبرته في حسم أني اتخذت قراري، وأضفت أن هناك ما هو أهم.. قصصت عليه موضوع حادثة السيارة ومحاولة حازم قتلي، اكفهر وجهه.

- خدت نمرة العربية؟

- لا

- فاكر مواصفاتها.

- لا، برضه.

نفخ وتعصب وانفعل.. شرد قليلًا وسألني عما إذا كنت أملك مبلغ ثلاثة أو أربعة آلاف جنيه، أجبته أني أملك فعلًا بخزانة والدي الصغيرة مبلغًا يفوق هذا بقليل تركه تحت يدي للمصاريف، ولكن لم يسأل؟

- قوم معايا.

- على فين.

جذبني من يدي: قوم بس.

في البنك كان الجفاء واضحًا بيني وبين شيراز، كان هذا يشطرني شطرًا.. وهبتها قلبي وروحي ومشاعري، خرجت من قوقعتي لأجلها.. أحببتها حبًّا لو تشارك فيه العشاق لمعشوقاتهم..الأمهات لأبنائهن.. الرحماء للضعفاء.. المظلومين للعدل.. الأطفال للبهجة، لفاض منه ما يجعلني متيمًا بها حتى ألفظ أنفاسي الأخيرة.. وقد أهدتني حُضنًا ملتهبًا شبقًا.. بين ذراعيّ رجل آخر، كانت محاولاتي انتزاعها من روحي تأبى إلا أن تأخذ روحي معها، وبسببها جرحتُ مها.. مها التي كانت تعيش فقط لتستر نفسها وأمها

عن قسوة الحياة وبطش أيدي القدر، حاولتْ جاهدة ومخلصة أن تنسى ما حدث بيننا ولكن ثمة بريق ما في عينيها قد انطفأ وهو ما أشعرني بالذنب، لاحظت إصرارها على كسب ود سلمى الصغيرة.. اهتمامها بها وبياسين.. هي إذن آخر طلقة لديها ولابد أن تصيب هدفها.. تمنيت لها أن تحقق ما أرادت لعل هذا يخفف الوطء عن وخزات ضميري نحو ما فعلته معها، وكعادة علي كان محايدًا تجاه الكل حتى ياسين ولم يتخلَّ عني لحظة، مرت الأيام عادية -حوالي أسبوعين- لا يجِدّ فيها جديد.. مرّتْ بين ثنايا جروحي واستماتي في الهروب منها.. أحجيتي التي أنتظر مفاجآتها بين لحظة وأخرى و.. توقُّع محاولة جديدة لقتلي لأجل قاتلتي، تصورت أن الأمور من الممكن أن تهدأ بعض الشيء خاصة أن مداومتي على كتابة ما أشعر به موثقًا بالتوقيت كانت طبيعية جدًّا ولم يجد الدكتور حسن فيها ما يريب.. كنت مخطئًا فيما فكرت فيه لأن المكالمة وصلتني اليوم.. وأنا في طريقي عائدًا من البنك إلى شقتي، ارتفع رنين هاتفي المحمول ولمحت على الشاشة كلمة Unknown فأجبت مستجيبًا لفضولي:

- آلو.

- الحكاية خلاص خلصت.. حياتك أو حياتي.

توقفت بالسيارة فجأة مائلًا بها إلى جانب الطريق مصدرًا ضجة عالية.

"يا حمااااااار"!!

صاح بها سائق السيارة التي كانت تسير خلفي وبالكاد تفادى الاصطدام بي، لم أرُدَّ عليه وسط ذهولي.. كان هذا صوته الذي نقش في ذاكرتي للأبد.. صوت حازم.

- حازم!

- اسمع أنا ما بهزرش.. من دلوقتي اعتبر نفسك ميت.

وضع علي مسدسًا على مائدتي، تبادلنا نظرات قلقة، فكرته المجنونة كانت الاستعانة بصديقه مهاب -ابن الدكتور حسن وضابط الشرطة- في شراء هذا المسدس بالمبلغ الذي أصر على أخذه آخر مرة لنا في المقهى، دون رخصة طبعًا وبطريقة غير قانونية.. أي أنه استعان برجل قانون في عمل غير قانوني!

- خلاص جابت ضُلفها الطب النفسي مش هاينفعك لو مُتّ.. لازم تحمي نفسك.

قالها بحسم وبسرعة وكأنه أجبر نفسه على هذا وأراد التخلص من هذا الحِمل سريعًا، كان مرأى المسدس في حد ذاته مخيفًا، دوى في ذهني صوت طلقات الغزو وأغرقت دماؤه ذاكرتي، قلت بتوجس:

- هو كلّمني على التليفون.

- وبعدين؟

- بيقول لي اعتبر نفسك ميت.

احمر وجهه غضبًا ووقف منفعلًا: يبقى أنا كنت صح، لازم نوصلّه يا رامي.. لازم.

- أنا عمري ما شيلت سلاح.

- للضرورة أحكام.. أخبار الـ Notebook إيه؟

- قصدك الحالة.. كل حاجة طبيعية جدًّا.. حتى الهلاوس ما بقتش بشوفها.

كان يبدو في حالة صراع داخلي، عاد للجلوس من جديد وتلعثمت أفكاره في ذهنه، خمنت هذا من شروده العميق.. أخيرًا حاول تغيير دفة الحديث:

- إنت ليه بقيت بتتعامل مع شيراز كده.. إنت مخبِّي حاجة؟

- أبدًا.. أنا بس عايز أخلعها من جوايا، ما تقلقش.

لم أُرِد أن أذكر له شيئًا عن الصور؛ برغم كل شيء سأحافظ على نقاء سُمعتها، تردد للحظات قبل أن يهم بالرحيل، استوقفته:

- علي.

استدار كأنه ينتظر أن ألقي باعترافاتي فأردفتُ: إنت مش خايف يكون موضوع حازم ده كله وهم ومش حقيقي؟

ابتسم بمرارة المضطر.. وكأنه يبرر لنفسه أجابني:

- إنت بتعرف تفرَّق كويس أوي بين الهلاوس والحقيقة.. كمان أصدقك أحسن ما أندم طول عمري إني ما لحقتكش لو جرالك حاجة لا قدر الله.

- إنت مصدق إنت فيه حد يستاهل كل اللي بتعمله معايا ده؟

- مانا قُلت لك قبل كده.. حمار!!

قالها باسمًا، أدار ظهره وانصرف.

في المساء كنت قد قررت قتل حازم.. نعم سأقتله، هو قالها وأعلم أنه سينفذ، حياته أو حياتي وقد اخترت، ظللت ساهرًا ولم أستطع النوم، كانت الفكرة قد استحوذت على عقلي تمامًا وكأنني أدركت للتوّ أن حياتي في خطر ما لم أفعل شيئًا ما، كنت أروح وأجيء في الصالة.. سأقتله رميًا بالرصاص.. نعم، سأفعلها وإلا ما فائدة المسدس إذًا.. ولكن الجثة وصوت الطلقة.. كيف سأتخلص من هذا كله دون فضيحة تجذب جميع سكان الكوكب، في البانيو وقد غطس جسدي تحت الماء.. ماذا عن الخنق أو إغراقه في النيل.. ولكنه هو الأقوى ولن أستطيع صرعه، فكر فكر.. آه.. السم.. في الفراش أشرب الشاي وأعمل ذهني كادحًا.. لا بُدَّ من جرجرته إلى حديث ودي وأضع له أي هباب في أي زفت يطفحه، ثم عدت إلى الخطة الأولى.. هل أشتري كاتمًا للصوت وأنفرد به في منطقة منعزلة.. في النهاية وجدت نفسي أخط بعصبية شديدة على ورقة ما لا أعلم متى أمسكت بها وبالقلم.. لازم يموت لازم يموت.. لازم يموت، وكان الشاي قد انسكب فأغرق الفراش.

***

- إزاي يا علي تعمل حاجة زي كده؟ عارف يعني إيه تدي مسدس لواحد خايف؛ يعني في لحظة انفعال ممكن جدًّا إنه يقتل.

غضبًا.. خبط الدكتور حسن سطح مكتبه وهو ينطق جملته هذه، جلس علي أمامه متوترًا ومحاولًا الدفاع عن موقفه وتبريره.

- أنا عايزه يحمي نفسه.. وبعدين مش أحسن ما يموت هو، ده بيقول له: اعتبر نفسك ميت.

- أنت بتفكر إزاي بس.. تقدر تقول لي هاتثبت إزاي إنه كان في حالة دفاع عن النفس لو حصل حاجة؟

- رسائل التهديد موجودة.

- هاتستكتِب واحد ميت!

- طيب إيه الحل؟

- خليك جنبه يا أخي.

- قد إيه؟ يوم اتنين تلاتة.. شهر.. سنة؟ هو بيعرف يصطاده لوحده.

- أديك قُلتها.. لوحده، هاتسيبه لوحده؟ لازم تلحقه قبل ما يعمل كارثة.

أطلق علي زفيرًا ملتهبًا: أنا تعبت بجد ومش عارف أعمل إيه.

كانت فوهة المسدس ملصقة بصدغ ياسر همام، الآن سيكون وضع حدًّا للحياة، الآن سيُكشف الحجاب.. الآن سيكون هناك عالم بلا حفنة أوراق نقد تُعلي من شأن أُناس وتطحن عظام الناس، الآن سيكون هناك عالم بلا شهوة، رجال يسلبونه حبيبته وأحلامه وحياته لإشباعها.. فقط لأنهم يملكون كل شيء وهو لا يملك، الآن سيحصحص الحق.. الآن سيعرف حكمة التوزيع غير العادل للعدل.. وسيصرخ وقت الحساب على ذنوبه بمحاسبة أخرى على رحمة وعدل مفقودين؛ لهث الناس وراءهما وأُفنوا في سبيلهما دون حتى أن يشمُّوا ريحهما، الآن سيعرف لِمَ غُرز في بني آدم حب الدنيا.. ولِمَ يصلى نارًا حامية لأجل سعيه لهذا الحب، ولكنه خائف.. مرعوب.. عاجز، كيف سيواجه جحيمه المنتظر بهذا!

حين عرف علي أن ياسرًا يلاحق داليا بسخافاته قرر أن يواجهه ويلقنه درسًا يعرف بعده جيدًا الفرق بين بنات الناس وبين مومساته، ولكنه لم يكن قد حدد ما سيفعله معه بالضبط، ولما أتم صفقة شراء مسدس صديقه جال بخاطره أن يستخدمه فيما انتواه، كان قد حدد موعدًا مع ياسر عن طريق الهاتف باعتباره كاتبًا مبتدئًا ويريد لقاءه لعرض نسخة ورقية من روايته على

الدار وقد ألحَّ في تأكيد أنه على استعداد تام لدفع تكاليف النشر بالكامل وفورًا، حين دخل إلى مكتب ياسر لم يتفوَّه بأية مقدمات.. أغلق الباب عليهما واتجه إليه وعلى وجهه ابتسامة مصطنعة، رحب ياسر به بشدة ولكنه تسمّر مشلولًا وتجهم وجهه حين رآه يُخرج المسدس من حزامه ويلصقه بصدغه، في حقيقة الأمر كان المسدس فارغ الخزنة، فلم يكن علي على استعداد بمجازفة أن يحدث خطأ ما يذهب به إلى السجن لبقية حياته، كان ذهول ياسر طاحنًا للاحتمالات في عقله.. فله من الضحايا الكثير.. سواء ضحايا نصبه أو حتى أحد أزواج من ضاجعهن أو أن إحداهن استأجرت من ينتقم لها، كانت نظرات علي قاسية صلدة لا تَنُمّ عن أية مشاعر - وهو قد درب نفسه كثيرًا على خوض هذا الموقف ورسم تعبيرات وجهه - وأخيرًا نطق علي كلمتين فقط لا غير: داليا لأ، والحق أنه لو كان زاد عن هذا فلن يجد من يسمعه.. سقط ياسر مغشيًّا عليه من الرعب.. لكنه على الأقل عرف السبب، كان هذا التصرف بمثابة فتح باب شيطان النكد الأزلي بين الرجل والمرأة، فقد تناثرت الأقاويل في الوسط عن زيارته المجنونة لياسر، قالوا: إن ياسرًا كان على علاقة بداليا اكتشفها خطيبها.. وكالعادة بلغت الرواية مبلغًا واسع التفاصيل

المضافة والمرتجلة أحيانًا، فضيحة مدوية بطلتها داليا نوري خاصة أن تلك الواقعة قد جرَّت معها فضائح منسية.. منها على سبيل المثال ادِّعاء ياسر لموته والترويج لنشر هذه الإشاعة فقط كي يشوشر على فضيحة صفا جلال الدين.. كاتبة كان على علاقة بها، حين اكتشفت أنه عاهر يتلاعب بها ذهبت إلى مكتبه وضاجعته راضية، بمجرد نزولها حررت محضرًا ضده متهمة إياه باغتصابها، وتنازلت عن القضية بعدما استردت كل أموالها المهدرة عليه وفوقها عشرة أضعافها، لكن الحكاية كانت قد انتشرت كرائحة المبيد الحشري في مطبخ مغلق، وظهرت الحكايات تباعًا تتوجها آخر فضيحة.. داليا نوري، كانت مواجهتها لعلي كاسحة.. تقريبًا مسحت به الأرض ولم تدعه ينطق حرفًا للدفاع عن موقفه أو تبرير فعلته بالغيرة عليها، تدريجيًّا أدرك فداحة ما اقترفه وحدثت المصيبة حين استدعوه في بيت أبيها ليجد أسرتها مجتمعة.. ردوا إليه الشَّبْكَة، ودون تردد أو دموع فراق خلعت داليا دبلته وألقتها في وجهه.

(٢٦)

الهزيز يرج أوصالي.. يمزق وعيي بخيالات مفزعة لما سيحدث بعد دقائق، أعرف أنه سيحدث.. اليقين ما هو إلا إيمان بأنه قادم، أنتظره جالسًا على كبُّوت سيارتي، اخترت منطقة منعزلة ونائية على سطح المقطم، من هنا تتضاءل صراعات النمل على كِسرة خبز، متضائلة لحد التفاهة، من هنا تختلس الشهوات ردًّا على ضياع الأحلام بالأسفل، هنا مملكة الظلام وتحت مملكة أموات ظنوا بأنفسهم حياة.. من هنا أمد يدي فتحتوي كل العالم.. عالم حدوده أصابعي، لو شئت أن أضع القمر بين إصبعيَّ لفعلت، فقط أرفعهما بما يناسب أبعاد منظوري.. أردت لو أطبقت بأصابعي على هذا العالم فأعجنه عجنًا وألقيه تجاه القمر الصغير، آه، لو وجدت مكانًا خارج حدود سنوات عمري، سأفني منه سنوات وأزيح أيامًا.. سأعيد تركيبه فقط كي أدرك أن كل هذا تافه بدوره في منظور من هو أعلى.. أعلى مني الآن ومن القمر والسماوات، وتغشَّتني اغتيالات ما جرى للعمر تحيط دماغي بالذكريات المسفوحة.. تقطر بؤرًا قانية، أبدًا لم تكن راسية على حال.. لحياتي مزيج

متلون.. أبيض بلون الطفولة.. أحمر بلون دم الدمار.. أسود بلون المجهول، وهزيز الرياح يأبى إلا أن يزيد من رجّاته للكون.. كون محوره أنا.

***

وانت أمك راحت في الحرب وسابتلي حمل كبير أوي.. إحنا رجعنا غصب عننا وخلاص ما لناش إلا بعض.. إياك تسمع كلام حد غيري.. فاهم يا رامي.

***

بوووووووووووم: ماكو مقاومة.. ماكو مقاومة.

***

افتح الباب يا رامي.. افتح الباب.

***

تداعب يدي في الخفاء بوردتي الورقية:

- على فكرة وحشتني.

***

يبقى مجنون اللي يقولك إنه فهم الدنيا دي.

***

وجه بطوط تلوث بالدماء.. راتا تا تا تاااا.. بووووووووم.

***

أنا السواد اللي هاتشوفه من هنا ورايح.. أنا الرعب اللي هايخليك تمشي تتلفّت حواليك.. أنا اللي هامحيك من الدنيا.

***

يمكن عشان شايفك سلبي ومش قادر تقاومه تمادى في تهديداته ليك، وطبيعي جدًّا إن لو حد هدّد حياتي أتحول لدرجة من الشراسة قدَّامه.. ده عُمرك يا رامي.. حياتك.

***

هَب يَك.. يَك.. يَك.. يَك.

***

صوت الخطوات يمتزج بالريح تعوي وتنوح، ترددت في مؤخرة رأسي كلمات رددها الشيخ الإمام بصوت ملتاع.. ناح النوّاح والنوّاحة.. لا أعلم لِمَ قفزت إلى سطح ذاكرتي الآن، خطواته تقترب، تدهس ما كان وتُشكّل ما سيكون، قلت دون أن ألتفت له:

- اتأخرت ليه؟!

- مستعجل أوي على الموت؟!

وظهر، واثقًا جدًّا.. وسيمًا جدًّا.. أنيقًا جدًّا، بدا غير مستعد لتضييع وقته.. هذه النظرة كانت وعدًا بالإنجاز.. هنا وحالًا:

- إنت عايز تقتلني ليه؟

- ما بقاش ينفع خلاص، واحد فينا بس اللي لازم يعيش.

نطقها بِغِلّ ومَقت، وسامته طفحت كرهًا مقيتًا، كان يقف بثقة وكأنه يُوقِن بأن لا مفر لي وأني لا محالة هالك الآن على يده، صرختُ:

- هي مش بقت خلاص في حضنك ومعاك.. عايز مني أنا إيه؟

ضحك.. قهقه.. كانت ضحكاته تأتيني من أبعادي الثلاثة.. بل الأربعة.. طولي وعرضي وارتفاعي.. وزمني المقتطع من ظفر القدر، تحيط بي وتعتصرني:

- على فكرة أنت حمار.. مش فاهم أي حاجة.

فجأة أمسك بي من ياقتي بعنف وجذبني إليه، كلماته تنِزّ حقدًا:

- أنت دمرت لي حياتي.. أنت السبب في كل حاجة ضاعت مني.

حاولت جاهدًا وأد الفزع الذي تغلل في جسدي ساريًا في عروقي، برغم كل شيء بَدَتْ جملتي مهزوزة:

- أنا ما أعرفكش.. أنا طول عمري في حالي!!

- نصيحة أبوك اللي عملت منك جبان!!

بُهِتُّ: إنت مين؟

- ما فيش كلام خلاص.. وقتك خلص.

وهم بالهجوم، أخرجت مسدسي فورًا وصوبته بين عينيه:

- عندك.. هاقتلك يا حازم.. هاقتلك.

يداي ترتجفان انفعالًا، رمقني بسخرية وتراجع يرشقني باستصغاري مستخفًا:

- هاء.. رامي الخوّاف اللي بيترعب من خياله عايز يقتل. ثبّت عينه في عيني وضغط على مخارج حروفه: لو راجل اضغط الزناد.

أكلتني كلماته.. الآن سأكون آخر، سأفني ضعفي.. سأخرج من الحائط، الآن سأنسلخ من ماضيّ السالخ لكينونتي، الآن.. والآن فقط سأرسم الخط الفاصل بين ما كنته وما سأكونه، وتمزقت حنجرتي بصرختي: أنا مش جبااان..

وبكل الغل اعتصرت الزناد.

لم يحدث شيء!

المسدس لم يستجب، لم تخرج الطلقة المخلِّصة، لا أفهم ما الذي...

هوتْ اللكمة على فكي فدفعتني للوراء قبل أن أسقط على ظهري بعنف، غامت الدنيا لثوانٍ، وفجأة وجدت المسدس بيد حازم، واقفًا أمام رقدتي وألصقه برأسي.. كان جذلًا مستمتعًا بما يحدث:

- مش بقولك حمار.. ابقى الغي زرار الأمان.

شماتته كانت أقسى من قتلي المحتوم على يده:

- باي باي يا روميو.

تدفق الأدرينالين في دمي، رفعت قدمي راكلًا ما بين قدميه بِغِلّ، تأوه بصوت عالٍ وأقعى على ركبتيه تاركًا المسدس يسقط من يده، لم أضع وقتًا، نهضت جريًا إلى حجر ملقى بقربي، التقطته قبل أن يستعيد توازنه، كالسهم انطلقت نحوه وقفزت في الهواء، نزلت بالحجر على أم رأسه فشججته، ارتمى على الأرض فاقدًا للوعي غارقًا في دمائه التي طالت وجهي وقميصي، خيل لي أن لهاثي سيوقظ الأموات بالأسفل، لكنني لم أكن أنتوي التراجع أو التراخي، انحنيت عليه وجذبت جزعه لأعلى وحملته على كتفي، كان الوقوف بحملي عسيرًا وسقطت به، أعدت الكرَّة ووقفت بصعوبة بالغة، وكأني أحمل المقطم نفسه، اتجهت للسيارة ومددت يمناي لفتح باب السائق، ألقيته على المقعد، كنت مدفوعًا بقوة غريبة لما انتويت فعله الآن.. انحنيت وفككت ال hand brake، صفقت الباب رزعًا لأغلقه عليه.. جريت لمؤخرة السيارة، شهقت بقوة وزفرتُ قوتي دفعًا للسيارة نحو الهاوية، هه هه هه اللهاث.. الخلاص.. الجريمة.. تبقت أمتار قليلة، دفعت حملي إلى قدميَّ وأسرعت في خطواتي المودية به إلى الجحيم، إنه يفيق.. يستغرق ثوانٍ لفهم ما يجري.. لم

أتوقف لحظة.. إنه يفهم.. أزيد من سرعتي وقوة دفعي.. هه هه هه اقتربت الهاوية.. متر واحد.. يحاول الخروج بهستيريا.. أدف..ع أكثررررر، يصرخ: لالالالالالا زدت من إصراري.. دفعت أكثر.. وهوت السيارة.. هوت من سطح المقطم لتنفجر محترقة بمن فيها، محيلة الليل إلى نهار.. السكون إلى الصخب، صرختُ كالرعد:

- مووووووووووووت.

صوت الغسالة يخرق أذني.. الدم طفح فوق الماء المغطى برغاوي المسحوق وكأنه يريد أن يطبق على عنقي وكأن هذا الوغد لا زال حيًّا في دمائه ويريد الانتقام، تنفست بعمق محاولًا التماسك.. ببطء انتزعت ما تبقى من ملابسي وأرخيت جسدي في ماء البانيو الساخن، إن جسدي ينتفض.. ينتفض، لا مفر وقد جاءت اللحظة التي لن تعود حياتي بعدها إلى ما كانت عليه أبدًا، الرعشة تنهل أوصالي وأكز على أسناني متشبثًا بخيط واهٍ من التماسك.. بلا جدوى، لقطات سريعة لما حدث تنقضّ على ذاكرتي وكأنها تلطم وجهي في ضربات متلاحقة وساحقة.. اهدأ.. بالله عليك اهدأ، ما كنت لأفعل غير ذلك.. إما أنا أو هو.. حياتي أو حياته.. هو من أحال حياتي إلى جحيم.. هو من انتزع مني

الشخص الوحيد الذي أردته.. هو من قصم ظهري وتغلغل في حياتي ليسحق أيامها وساعاتها ودقائقها.. هو من مزق مجلاتي، هو من أحاط بي فانتزع فتيل الشر ليطلق لمارد العنف العنان بداخلي.. لا أستشعر ندمًا.. ولم أحس شفقة عندما شججت رأسه ولا عندما أحرقته حيًّا.. فقط لو تكف الغسالة الحمقاء عن هذا الضجيج.. زنة عاتية تصك سمعي وقد اتخذ أزيزها نغمة تتكون ببطء.. ببطء.. لتشكل كلمتين اخترقتا طبلتي أذنيّ:

"أنت قاتل.. أنت قاتل

من جيب السروال الجينز الأزرق المتسخ بالغبار والدم برز المسدس الذي أعطانيه "علي ماذا لو علم بما حدث وكيف سيكون رد فعله.. قررت ألا أخبره كما قررت أن أقصي الدكتور "حسن من حياتي نهائيًّا فلم أعد بحاجة له.

"أنت قاتل.. أنت قاتل

نعم، أنا قتلت هذا الشيطان وغير نادم على هذا.. نعم، أنا لم أعد ولن أعود كما كنت، أنا متواجد كالقدر ولن أتنازل عني مرة أخرى.. ملأت رئتاي بالهواء في قوة.. أنا مفعم بالحياة.

تررررررررررررن، جرس الباب انتزعني من غياهب جريمتي الأولى.. نهضت كالملسوع وارتديت شورتًا وتي شيرت على جسدي المبتل، أخفيت المسدس وغطّست السروال في الماء مع القميص، سرَّحت شعري بيدي على عجل وخرجت للصالة، أدرت موسيقى زامفير بصوت عالٍ يطغي على صوت الغسالة التي تمحي آثار فعلتي، تنفست بعمق محاولًا تثبيت أعصابي متوقعًا مصيبة سوداء.. وفتحت الباب.

(٢٧)

فتحتْ شيراز الباب لتجد مها واقفة تبتسم بحرج، بعد الاستقبال المتوجس جلستا أمام أكواب العصير، بدا واضحًا التساؤل عن سبب الزيارة في عين شيراز.

- صدقيني ما فيش أي حاجة بيني وبينه.

أشاحت شيراز بوجهها، كانت تنوي غلق هذا الموضوع للأبد ولم تكن تريد ما يفتح الجراح الدامية، الأنثى يمكن أن تغفر لك أي شيء إلا اختيارك لأنثى غيرها.. وأمام أعينها.

- أنا مش عايزه أتكلّم في الموضوع ده.

كانت مها مُصرَّة: لأ، لازم أكلمك.. إحنا بنات، وإنتي عارفة كويس إن أسهل حاجة عندنا هي فهم مشاعر الحب في عيون راجل.. ده بيحبك.. ب..ي.. حبك، وجدًّا كمان.

- ده شيء ما يخصنيش.

- لأ يخصك.. اللي حصل في خطوبة علي كان متعمَّد، يمكن يكون عايزك تغيري عليه أو يحركّك شوية.. مش عارفه بالظبط هو عمل كده ليه، إنما واضح إنك أنت المقصودة، أنا متأكدة إنه بيحبِّك.

نظرت شيراز بعيدًا وقالت بسرعة:

- وأنا مش بحبُّه.

نظرت إليها مها بمعنى (ليس عليَّ أنا) فارتبكت مردفة: ما بقتش بحبُّه يا ماهي.. خلاص؟

- أنا جيت لك عشان أريّح ضميري.. جيت أعزمك على فرحي.

- فرحك!

ردّت مها بسعادة الدنيا:

- أيوه.. كتب كتاب ودُخلة على طول.. العريس أنتِ عارفاه كويس.

***

بعد انتهاء حفل زواج ياسين من مها كنت وعلي جلوسًا بمقهى وسط البلد مرتدين بذلات السهرة، كنت سعيدًا لأجلهما.. هي قد وجدت ما ابتغته وهو قد عثر على من ستحاول أن تكون أُمًّا لسلمى، خلع علي سترته وفك رباط عنقه، علق السترة على ظهر الكرسي وهو يطلب لنا القهوة علها تخفف عن رأسينا صداع الحفل، كان مرتابًا في أفعالي أثناء الحفل، وكنت ألاحظ تجهُّمه وأرجأت السؤال عما به إلى حين ننفرد، بادرني هو:

- شكلك مبسوط، فيه جديد؟

- لأ، الدنيا عادي جدًّا.. مالك؟

بدا غير راغب في الإجابة، وأصرّ على تغيير الموضوع إلى ما بي أنا:

- أصلك النهارده متغيَّر، دخلت كده بقلب جامد على شيراز ورقصت معاها.

لمحتُ يده الفارغة من دبلة الخِطبة فنظرت له بتساؤل.. أخفى يده على الفور وقد كانت علامة وجودها هناك متروكة كأثر لجراح قلبه كما خمنت، طفت المرارة على وجهه فورًا:

- كل شيء قسمة ونصيب.. الحمد لله على كل شيء.

- أيوه إيه اللي حصل يعني؟ مش كنت طاير بالخطوبة من فرحتك بيها.

- ووقعت على جدور رقبتي.. دي قصة طويلة هاحكيها لك بعدين.. المهم إنت، حازم كلِّمك تاني أو قابلته؟

- ما بقاش بيظهر.

قلتها وأرحت ظهري إلى المقعد.. وابتسمت، أثار هذا شكوكه فلم أكن فعلًا كما عهدني، وكأني أصبحت آخر.

- رامي، إنت فيه حاجة مخبيها؟ متأكد إنك ما قبلتش حازم؟ المسدس معاك؟

- صدقني يا علي أنا كويس.. المهم إنت دلوقت، ممكن أفهم اللي حصل مع داليا؟

- هاقولك كل حاجة بس مش وقته.. أنا عايز أشوف المسدس.

- في البيت والله.. وابقى عِدّ الطلقات بنفسك يا سيدي ما تخافش، بقولك إيه.. أنا هاخد أجازة كام يوم كده.. أهو نستغل فرحة ياسين لما يرجع من أجازته، مش هايعلّق.

- يا بني افهم.. أنا مش عايزك تبقى لوحدك.

تأملت ملامحه القلقة عليّ دون تصنع، لا تخش عليَّ يا صديقي فقد أصبحت قادرًا على أي شيء.. من يرتكب جريمته الأولى يشعر أنه فوق الكون نفسه.. امتلك الموت وهو قد أحيا وأمات.

- ما تخافش يا علي.. مش هابقى لوحدي.

اختلجت ملامحه بين ما يكنه خلف أضلعه وارتيابه في أمري.

بعد منتصف الليل كنت نائمًا مع سارة، جارتي، كانت زيارتها الأولى لي حين دقت بابي وأنا في البانيو، وجدتها تقف ممسكة بباقة من الورود الجميلة.. لكنها هي أجمل، ارتبكتُ وتلعثمتُ ولم أعرف بها أنطق أو أفعل.

- هاتسيبني واقفة كتير؟

قالتها معاتبة بابتسامة رائعة فدعوتها للدخول، أجلستها في الأنتريه واستأذنتها لدقيقة، عُدت بجسد قد جففته مرتديًا ما يليق وحاملًا مشروبًا ما، قالت كلامًا كثيرًا عن مجيئها في وقت غير مناسب دون موعد، ظللت أردد أن لا مشكلة هناك وأنه كان يجب عليّ أنا أن أشكرها وأهديها الورود، ضحكتْ وأخبرتني بأن لا فارق بيننا، فالجيران لبعضها، أفاضت في حكي ما حدث وكيف

أنقذتني هي، الحق أني كنت أرغب في إنهاء هذه الجلسة سريعًا، فلم أكن على استعداد لأي تواصل بشري.. وكيف أجد بالًا رائقًا لهذا وقد ارتكبت لتوي جريمة قتل! انتهت الجلسة بتبادل أرقام الهاتف ووعود بأننا سنكون keep in touch معًا، في الأيام التالية حررت محضرًا بسرقة السيارة حتى أكون بعيدًا عن الشبهات حين يجدونها وبداخلها الجثة، وتدريجيًّا خف قلقي وتخوفي بعض الشيء إلا أنني كنت أنتظر استدعاء الشرطة من أجل العثور على سيارتي محترقة وبداخلها جثة متفحمة في أي ثانية؛ وكنت أنتفض عند سماع دقات على بابي أو رنين هاتفي، في حين لاحقتني سارة بالاتصالات متعللة بالاطمئنان عليَّ بعد الحادث، وتطورت المكالمات وعرفنا عن بعضنا أكثر.. سارة محمد الميهي، أرملة في السادسة والثلاثين حاصلة على ليسانس آداب- قسم اللغة الإنجليزية وآدابها، لم تنجب بعد زواج دام لمدة ثلاثة أعوام وانتهى بموت الزوج بسكتة قلبية، وقد شهدت صراعًا مع الورثة على كل قرش تركه حتى حصلت على حقها الشرعي، المرحوم كان قريبًا لها ويكبرها بخمسة عشر عامًا، جُنّ جنونه بها حين رآها في زيارته لأهلها بالمنصورة.. هـذا الجسد العاجـي البض والممشوق.. الأرداف البارزة والنهدان الأشبه بكرتين.. الفخذان الرائعان ظهرا حين جسّمتهما جلستها

أسفل التنورة.. كل هذا لا بُدَّ وأن يكون ملكه وقد كان، تحملت حياتها معه لأنه عريس ثري وفرصة لا تعوض، أجبرها أهلها على هذه الزيجة وخسرت بسببها حب عمرها مع زميل جامعي ظل معها حتى ما بعد سنوات التخرج، انتقلت للعيش مع الزوج في القاهرة، وحين نالت لقب أرملة وجدت نفسها مطمعًا للكلاب الجائعة لأموالها أو لجسدها، فرَّت من كل هذا بأن ابتاعت الشقة التي تعلوني منذ عام تقريبًا لتعيش وحدها منعزلة عن كل هـذا، حتى أهلها في المنصورة يزورونها وتزورهم غبًّا، ترسل لهم ما يحتاجونه من مال بالحوالات البريدية وهو كثير جدًّا، وهي قد باعت كل ممتلكاتها الموروثة وتعيش على فوائد أموالها التي أودعتها البنك، حين سألتها عن عدم الإنجاب طوال هذه الفترة ضحكتْ في خجل شديد:

- الله يرحمه.

وأفهمتني بعبارات خَجْلى مرتبكة أنه لم يكن قادرًا بشكل كامل على ممارسة الجنس، وهو ما عرفت منه أنه تصريح خاص جدًّا منها بالخوض في أحاديث خاصة كهذه؛ لأنها ارتاحت للحديث معي، وثقت بي لأنني الوحيد الذي لم يحاول خطب ودها.. بل كنت لا ألحظها أصلًا برغم أننا جيران لعام

كامل، صوتها خلال الهاتف كان مثيرًا جدًّا، أخبرتني أن زوجها أُصيب بالسكتة من كثرة ما كان يتعاطاه من المنشطات الجنسية ويا ليته كان بفائدة، اليوم كسرنا حاجز الاتصالات وطلبت منها أن تأتي إلى شقتي ليلًا لنتكلم على راحتنا.. وافقتْ بعد تمنُّع خائب مكشوف الهشاشة.. وحذرتني أن: إوعى تتشاقى. فضحكنا، حين جاءت كنت قد أعددت كل شيء، رتَّبتُ الشقة بعد تنظيفها، رششت المعطر في الجو، انتقيت مقطوعة موسيقية رومانسية وجعلتها جاهزة على التشغيل، وأحضرت العصائر وقطع الشيكولاتة البيضاء التي أخبرتني أنها تحبها، كنت أدفع نفسي دفعًا لأكون آخر لم أعهده من قبل، واثقًا ومقتحِمًا.. علاقات نسائية.. قدرة على مواجهة أي كائن كان.. باختصار أردت إعادة صنع نفسي من جديد داهسًا هذا الذي كنته، حين جاءتني كان أول ما فعلته هو تقبيل يدها برقة، أتت هذه الحركة بثمارها على ملامح وجهها، بعد ساعة تقريبًا كنت أطوق خصرها نرقص معًا على أنغام الموسيقى التي أعددتها، لم نكن لنتكلم وقد التقت العيون بأحرّ الكلام.. خيل لي أن عينيَّ تكلمان كل ملمح من ملامحها على حدة.. شعرها الكستنائي القصير.. بياض بشرتها الناصع.. عينيها العسليتين الواسعتين..

شفتيها المكتنزة الدقيقة، في نهاية المقطوعة الموسيقية ورقصتنا ضممتها ودون مقدمات اقتربت بشفتي لأقبّلها.. كانت هذه أول قبلة لشفاة أنثى في حياتي، فلم أكن أعلم ماذا سأفعل بالظبط.. ألصقت فمي بفمها ورحت أمسحهما ببعضهما.. تراجعت ضاحكة من انعدام خبرتي، أشارت لي أن اهدأ قليلا.. ولمستْ شفتها السفلى قائلة بابتسامة ساحرة:

- مُصَّها.. واتنفس من هنا.

ولمست أنفي وكأنها تعلم طفلا كيف يمشي لأول مرة، اقتربتُ من جديد.. التقمت شفتها السفلى ومصصتها برفق.. أية روعة وأي طعم مِسكَّر ومُسكِر، عدت برأسي وأعدت القبلة ثانية.. هذه أطول قليلًا.. قبلة ثالثة.. هذه جاءت طويلة ومحكمة كما يجب أن تكون، أحاطت رقبتي بيدها فتحركت يدي تتحسس جسدها ومفاتنها برفق شديد، لان جسدها بين يدي.. مشيت بها إلى فراشي، ساعدتها في خلع ملابسها وأنا لا أتوقف عن تقبيل جسدها وشفتيها وملامحها.. ذابت تمامًا، تعرينا.. ساعدتني في كل لمسة.. كل قبلة.. وفجأة اهتاجت.. تولّت هي زمام الأمور.. اعتلتني.. وعرفت للمرة الأولى لذة الجنس.. حارقة حارة فوّارة.. متمكنة من خلاياي، لم أشأ أن ينتهي كل هذا، ألقيت بها على ظهرها من جديد وكأني أطالب

بدوري أنا الآخر، وفعلتها.. ولا أدري كيف جاء أدائي متينًا هكذا في المرة الأولى، أغمضتُ عيني.. ألتقط أنفاسي بعمق، وهي تصرخ وتتأوه من لذة الألم.. ومن النشوة، وأفتح عينيّ محدقًا بشراسة، الآن أهرسها.. آكلها.. أحفرها بعمق.. أشطرها نصفين.. صرخاتها تدوي ولكنها لا تضاهي ضجيج أفكاري.. للمرة الأولى أفعلها.. بعنف أفعلها.. ملقيًا ما فات من حياتي، فقد تغير كل شيء.. كل شيء.. وإلى الأبد.

تحركت بجذعها من تحتي لتتعلق برقبتي، تخدش ظهري وتصرخ:

- يخرب بيتك.. اااااااااه.. قبلك ما عرفتش رجالة.

تلعقني وتطلب المزيد.. تجذبني فوقها ولا زال انتصابي الشيطاني يخترقها، يدخلها جنة إبليس الأرضية.. التف وركيها حول خصري لترغمني على تدفق ملتهب بداخلها.. أبعدها بعنف، فتضم سر ذكورتي بين نهديها لينفجر بركاني.. تعالت تأوهاتها في نشوة حالمة، ارتمت على الفراش تدلك نهديها بمائي.. جذبتها من شعرها لأثقبها بعيني:

- نمتي مع كام راجل قبلي؟

بعد جملتي الأخيرة سكت الكون من حولنا، دفعتني بعنف شديد من فوقها، أسرعت تلملم نفسها من فراشي، ارتدت ملابسها بسرعة متخبطة

وكأنها تستره عني بأسرع ما يمكنها، جلست على ركبتيّ فوق الفراش عاريًا وصامتًا.. مدركًا للجرح العميق الذي سببته لها بجملتي تلك.. انتهتْ وتوجهتْ خارجة في غضب.. قفزتُ من الفراش لألحق بها.. أمسكت ذراعها:

- سارة، استني، أنا...

- اخرس.

دوت صرختها في وجهي فأفلتُّها، رمقتني باحتقار، ثم اختفت من أمامي.. سمعت دوي غلق الباب يعلن انتهاء علاقتي بها للأبد.. قبل أن تبدأ.

(٢٨)

القاهرة.. ٣٠ يونيو ٢٠١٣:

الحشود تقدَّر بالملايين، خرجوا لاستكمال ثورتهم، نفذ صبرهم من حكم الإخوان.. فشله وغطرسته، غبائه وتكفيره، انتمائه للجماعة وليس لمصر، علي كان من بينهم، يهتف بحرقة، يصبّ وجع قلبه في هتافاته، تنتفض عروقه بحثًا عن مصر وعن.. داليا، فكلتاهما وطن مفقود بيد حبه، وبدافع من عشق مجنون وغيرة حمقاء غريرة.. غيرة من فاسدَيْنِ مفضوحيّ الفساد أراداهما، الأولى: سلَّمها لتجار الدين مهاويس السلطة خوفًا من عودة الفساد الضارب أطنابه في كل شبر فيها، والثانية: سلَّمها للفراق خلاصًا من داعر نصَّاب، وتلاحم حُبَّيْهما داخله ليصنعا كيانًا واحدًا.. حبيبة لروحه ودقات قلبه ونبع أنفاسه، عاش وَلَهًا بتفاصيلها، عينيها.. ترابها.. شعرها.. شعبها.. بسمتها.. شموخها.. تحضرها.. حضارتها.. عقلها.. مثقفيها.. ملامحها.. سمار نيلها.. لمسة يدها.. شوارعها.. انفعالها.. ضجيجها.. استكانتها أحضانها.. لياليها المشحونة بالشجن، كان يؤمِّن المدخل إلى محيط الاتحادية مع زملاء الميدان.. مهاب هنا وآخرون، أحدهم أوصل سماعات كبيرة بسيارته تصدح بأغاني

تلهب حماس الثوار، اختار أن يكون هنا تحديدًا لأنه يعرف أنها ستكون هنا مع رفيقاتها لتسعف المصابين، كان يمني نفسه أن يلقاها.. أن يحتضنها.. أن تولد قصة حبهما من جديد في قلب ثورة جديدة، ومن بعيد تجمع عدد من أنصار الإخوان، كان من بينهم رمضان أبو حشيشة، جاء خوفًا على الدين.. آخر أمل له في الرحمة، ومعه جاء سعيد احتياجًا لحفنة الجنيهات في جيبه، ومعهما بضع من شباب الإخوان فداءً لقاداتهم ظل الله في الأرض وخلفاء الإمام البنا، ومعهم آخرون آمنوا فعلًا أنهم خرجوا في سبيل دين الله مجاهدين صادقين جدًّا في اعتقادهم أن مرسي هو حامي الدين ضد هؤلاء الكُفَّار الذين لا يريدون إقامة شرع الله.. يؤمنون أنه إنِ الحكم إلا لله، ويؤمنون أكثر أن هؤلاء يؤمنون أنه إنِ الحكم إلا للبشر، ويريدون نشر الدعارة والشذوذ والانحلال، فجأة انبعث صوت أصالة الراسخ كالجبال من السماعات الكبيرة، وارتفعت اللافتات أكثر.. ارحل.. نهاية حكم الإخوان.. وُضعت صور للمرشد وخيرت الشاطر والرئيس عليها علامات الـ × الحمراء.. صورة الرئيس مكتوب تحتها "مطلوب للعدالة.. هارب من السجن"، هاج المتظاهرون إثر رؤيتهم لمؤيدي الحكم الإخواني يحملون

سلاحًا، واندفع علي إلى الصفوف الأمامية حين اخترقت سمعه أصوات ضرب الرصاص والخرطوش.

وكأني معملتش حاجة.. من واحد كان يوم ولا حاجة.. من حقك ما كتير كَبَّرتك.. كَبَّرتك على سيدك..

صورة الرئيس مرسي..

ارحل..

اندفع أكثر للأمام، هناك صوت إطلاق للنار.. هناك مصابون.. هناك داليا، وأخيرًا رآها.. ظهرت منحنية على مصاب ما تحاول إسعافه.

مش هحكي عليك ده لأنك.. يا صغيَّر أنا أكبر منك..

صورة حسن البنا..

مشوَّهة..

- دالياااااا!!

الضجيج يطغى على كل صوت..

ما كان يجب أن تتواجد هنا.. والآن بالذات..

مانتاش أد النار م الأول طيب ما تعديها..واوعى تآمن ليها بتحرق.. اللي بيلعب بيها..

صورة تجمع كل شيوخهم..

ملطخة بالدماء..

- دالياااااااا.

تراجعت موجة الصفوف الأمامية فانكشفت داليا ومن معها، لم يتركوا المصابين ليتراجعوا.. ثبتوا في أمكانهم، أصبحوا هدفًا مكشوفًا ويسيرًا للنيران، يركض ويلهث يتعثر.. يسقط.. ينهض.. يواصل: دالياااااااا، رفع رمضان مسدسه وصوَّب.. ناحية داليا بالذات.. ثَبُتَتْ أعين علي على هذا المنظر.. زاد من سرعته.. وأخيرًا: يصل إليها.. ذهول على وجهها، احتضنها على الفور وحملها ليدور بها ويضع ظهره مكشوفًا أمام الطلقات ليحميها.. ينظر إليها ويبتسم، تنكمش في حضنه، أطلق رمضان رصاصتين.. اخترقتا ظهره وكتفه، واندفعت قوات تأمين الميدان لترد الهجوم.

وأنا عندي من النار دي زيادة.. لو عايز تؤمُر سدَّادة..

تشبث بها وهو يهوي ببطء، وهي.. عبرتْ الطلقة الأولى التي اخترقته بجانب صدغها.. الثانية استقرت في جسده، كانت ملامح وجهها تأبى التصديق أو الخروج من حالة الذهول.. كان يبتسم لها، أرقدته على الأرض وأسندت رأسه إلى فخذها، بصوت يفارق الحياة.. متقطع الروح.. مشقوق الحروف.. همس:

- قولي أنك ليَّ.

مالك؟ وِشّك ماله.. جايب تلات تِلْوان..

أحمر.. أبيض.. أسود..

منحها ضحكة أخيرة.. أسلم روحه إلى خالقها، تراخت أصابع كفه فأفلتتْ دبلتها الذهبية، تاه كيانها ما بين دمائه والدبلة وابتسامته التي تجمّدت على وجهه، ببطء التقطتها لتحيط بها بنصرها الأيسر.. تدفقت دموعها في صمت بليغ، طبعتْ قبلة على جبينه.. همستْ بكل خلية في جسدها، همستْ له وحده.. دون سواه:

- أنا.. لك.. يا علي.

ما أنا اتعودت أضحي علشان الغلبان..

فرّ المهاجمون جميعًا بعدما أطلقوا سهام الموت العشوائية.. إلا هو، تسمّر حين رأى وجه الشاب الذي قتلته رصاصتاه، كانوا يلتفون حوله وينتزعونه نزعًا من الفتاة المحتضنة إياه بتشبث، وعندما حملوه عاليًا مسرعين به إلى حيث يسعفوه، ظهر وجهه.

***

أنا أخوك علي.. علي السمري.

***

إنه هو.. أبدًا ما نسيه، إنه هو.. الوحيد الذي أخبره أنه يفعل شيئًا من أجله، إنه هو.. الوحيد الذي ربت عليه حنوًا، إنه هو.. ولكن.. هل هو ضد الله حقًّا؟! هل هذا هو من خرج لقتله أملًا في الرحمة؟! غامت الدنيا أمامه.. مادت الأرض من تحته.. خرّ على ركبتيه، رآهم يركضون نحوه بنظرة غِلّ يبغون قصاصًا، صرخ، صراخه هادرًا أراد به الوصول للسماء:

- ياااااااا رب.. ده مات ليه؟

يقتربون..

- ياااااا رب.. هو مش التانيين بيحِموا دينك؟

مها لم تكن أبدًا لك.. ولن تكون..

- ياااا رب.. ياللي ما نجيش نملة في عرشك، مين فينا مات قاتل.. مين فينا مات مقتول؟

عشت حياتك لا يرونك ولا يشعرون بوجودك أصلًا..

وستموت هكذا، حقيرًا كالكلاب..

إنهم يقتربون أكثر، صرا خه يدوي..

خطوات وينالونه، يجهش بالبكاء.. يصرخ:

- جايلك يااااا رب.

دون ذرة تردد أخرج مسدسه، ألصق الفوهة بصدره.. وأطلق النار، وصلوا إليه.. تجمّدوا رهبة لجلال الموت الحاضر بينهم، يتشنَّج جسده ويرتج.. يهتز، تُسحب الروح وتخفت دقات القلب، تسيل الدماء من صدره بحورًا.. غرغرة لعابه تُغرق جانبيّ فمه، وببطء يغيب العالم، ابتسم، فهو أخيرًا.. سيلقاه.

(٢٩)

رنين الهاتف انتزعني من برزخ النوم الأسود المُصْمَت بلا أحلام، تململ وعيي اعتراضًا، واللحوح ما زال مصرًّا على استحضاري في عالم الأحياء، مددت يدًا فقدتُ الإحساس بها عطشًا لدماء تجري في عروقها الجافة، نفضتها مرارًا والتقطت الهاتف، شممت بقايا عطر سارة كتذكار ليلة هوجاء سقطتُ من عليائها، تبين لي مدى فشل علاقاتي مع النساء بشكل قاطع، تنبهت حواسي دفعة واحدة، الشاشة تحمل كلمة Unknown بديلًا لاسم المتصل، قفزت جالسًا في الفراش ورددت بتوجس كفيل بإيقاف ضربات قلبي:

- آلو.

- آلوووووو.

صحت بهستيريا، فلم يأتيني سوى صوت تنفس مَن على الطرف الآخر، ثقيلًا وكأنه يتعمد قتلي ارتياعًا، فجأة جاءني صوته الساخر:

- صباحية مباركة، يا غشيم.. هاهاهاهاه.

خرجت عيناي من محجريهما تقريبًا، تسلطا الفزع والذهول على مسام جلدي فأدمياه سلخًا، عُجِن وعيي بضلوع منقبضة على قلب كاد أن يتوقف، إنه هو.. حازم!

- تؤ تؤ.. ما تمسك نفسك كده يا روميو، هو إنت فاكر إن الموت هايمنعني عنَّك.

أحاطتني رجفة مريعة تسحل خلايا مخي، كيف يمكن أن...

- قوم استر نفسك.

الآن فقط أدرك أني نمت عاريًا بعد ما حدث أمس!

- أنا معاك دلوقت.. أقربلك من نفسك.

ألقيت الهاتف بعيدًا عني فتحطم، هرعت إلى دولابي لأرتدي أول ملابس أجدها وأفر من هنا، انتزعت قطع الثياب فطار صندوق صوري لينثر أحشاءه على الأرض، حشرت ساقيَّ في السروال وانحنيت أبحث عن قميص أو ما شابه، لفت نظري صورة ما كانت تحت قدمي، خرجتْ من مظروف حازم بالذات، ثمة شيء مريب هنا، مددت يدًا راجفة لأرى،

محمـومًا رحت أفتش صـور حـازم وأقلِّبها، واحدة فأخرى.. فأخرى.. فأخرى، كلهم نفس الشيء، صور المركب النيلي.. صـور الهـرم.. أحضان العشق.. الملامح التيَّامة.. كل شيء كما رأيته من قبل.. عدا شيء واحد، الصور كانت تجمع شيراز بي أنا!

طفحتُ ذهولًا من هَوَس عالمي الداهس لعقلي قهرًا وجنونًا، رحت أفتش الشقة بجنون.

- حاااازااام.. إظهاااار.

أسفل الفراش.. تحت الأريكة.. خلف المقاعد.. غرفة أبي.. لا شيء.

- إنت فييين؟

الصالة..

الحمام.. أخرجت المسدس المخبأ..

غرفتي من جديد.. تسمَّرتُ..

لقد وجدته.. كان أمامي..

واثقًا جدًّا.. وسيمًا جدًّا.. أنيقًا جدًّا، في المرآة الكبيرة! كان يحلّ محلّ انعكاسي، على وجهه ابتسامة مفزعة، أراح كفيه على المرآة من ناحيته هو، اقترب برأسه مستهزئًا:

- إنت بتدوَّر عليَّ؟

سقط المسدس من يدي، اقتربتُ منه مأخوذًا، أسندت راحتيَّ بدوري فتقابلتا مع راحتيه، بينهم السطح العاكس.

***

غبت في ملامحي المعكوسة للحظات قبل أن يرتج كياني وأُقتلع من مكاني مرتطمًا بالحائط ورائي، انسحقت فقرات ظهري فسكنت لبرهة مقاومًا ألمًا رهيبًا، تراني تعثرت في شرودي ففقدت توازنًا منعدمًا أصلًا؟

***

كانت ملامحه ذات نظرات تأكلني:

- إيه؟ لسه برضه ما عرفتنيش؟ أنا إنت.. أنا إنت يا رامي.

لا رد..

- عايز تخلص مني؟

لا رد..

همس بصوت كالفحيح:

- اقتل نفسك.

ولم تسعفني أعضاء جسدي أو أعصابي أو خلايا مخي بالرد.. أبدًا، فقط أحاطت بي دوامة ذكريات عصفت بها تبقى من كياني المُعتصَر أمامه.. وبيده.

***

كنت أمشي في طرقات سيتي ستارز السابح في نهر من الأضواء والموسيقى وصخب رواده، كنت أعرف طريقي تحديدًا وهدفي واضحًا.. Miss Sixty، توقفتُ للحظات مترقبًا المدخل ونظرت إلى ساعتي، انتظرت لثوانٍ قبل أن تظهر شيراز خارجة وهي تحمل كيس مشرواتها الذي يحمل اللوجو الشهير، تقدمت ووقفت أمامها بالظبط فجفلت لثوانٍ قبل أن تتأملني بانبهار:

- مش ممكن إيه ده؟

- مفاجأة حلوة ولا وحشة؟

- حلوة طبعًا وتجنن.. بس إيه ده كله.. ده انقلاب.

ولأن عادتي في ارتداء ملابس كلاسيكية بحكم عملي تخفي تكويني العضلي برغم نحولي، فقد كان ما ارتديته اليوم مختلفًا ومبهرًا، تخلصت من تصفيفة شعري العتيقة، كنت أبدو فعلًا في حالة انقلاب.. من الخارج والداخل أيضًا، كنت أشعر أنني.. واثق جدًّا.. وسيم جدًّا.. أنيق جدًّا.

***

كنا في المركب النيلي، وفي اليوم الأول لمصارحتي لها بحبي.. قبّلتها..

فتحتْ عينيها ببطء لتتأملني ذاهلة مما كان فضممتُ رأسها الصغير إلى صدري بقوة:

- ما بقاش ليّا غيرك.. ملامحك وروحك وحتى نَفَسك بتنفسه ويحييني.. بعشق تفاصيلك.

ومن لي بعدها وقد فقدت أبي، كان لي حياة وذهب بها بعيدًا.. لن أتركها أبدًا.

***

- طب تعمل أيه لو قُلت لك إن فيه حد تاني بيحبني أوي.

استشطتُ غضبًا وخوفًا وجزعًا و.. غيرة.

- نعم؟ حد مين؟

رفعت كتفيها بدلال فتَّاك ظاهره اللامبالاة: حد.. معايا في البنك.

اعتصرت كفيها بقوة حتى آلمها فتأوهتْ، انبعثت من عينيّ شرارة غيرة رجل استشعر خطرًا على حوائه.

- ويطلع مين ده بقى؟

- آآه إيدي.. ياسين.

- ياسين!

واتفقنا بعد إلحاح منها على إخفاء ما بيننا أثناء ساعات العمل تفاديًا لما قد يسببه لي من متاعب.

***

وتسببت رهبة الجو المحيط في إشعاري بأن خطي جاء غريبًا عن ما عهدته من يدي.

الخط المنمق كان خطي أنا من البداية.. وما كتبته بيدي في عيادة الدكتور حسن هو خط آخر لا أعرفه.

***

لم أعد أحتمل.. بكيت كالأطفال، انهمرت دموعي مدرارًا، تملكني الفزع والخوف، انسحقتُ رعبًا، همهمت من بين دموعي وأنا أنشج:

- إنت عايز مني إيه؟

- إنت مين؟

-

- لالالالالالا

كنت أتعارك مع نفسي!

أنا الذي صدمت رأسي بالقائم الخشبي للمائدة.. لم يكن هناك غيري..

أنا الذي مزقت مجلاتي..

***

صوت احتكاك الإطارات بالأسفلت شق سكون شروده فتنبه لما يحدث، حاد عن الطريق المخصص للمشاة فوجد نفسي وجهًا لوجه أمام سيارتي تمرق نحوه، على الفور تحرك نحو جانب الطريق، كنت أريده هو بالذات دون غيره فمِلت ناحيته أكثر، زدت من دهسي لدوّاسة البنزين، قفز في الهواء كما يرتمي حارس المرمى على كرته، بالكاد تفادى الاصطدام لكنه زحف على الأسفلت نحو مترين على الأقل.

فلت ياسين مني هذه المرة.. فررت هربًا بالسيارة قبل أن يراني.

***

- إنت إزاي تعمل كده! ده كان ممكن يموت؟!

صاحت بها شيراز منفعلة إلى أقصى حد، التفت إليها معظم الجالسين بالكافيه، بدوتُ هادئًا وصارمًا لا أبالي بثورتها.. قلت بإصرار:

- أنا قُلت لك قبل كده إن اللي يقرب لك يبقى بايع نفسه.

- إنت مجنون.

- مجنون مجنون، بس بحبك.

***

حين دخل ياسين البنك صباحًا بصحبة سلمى الصغيرة صاحب دخوله كثير من عبارات: ألف سلامة عليك، واستفسارات عما حدث، كان مضمد اليد، ويعرج قليلًا.

***

أحطتُ خصر مها وضممتها إلى جسدي.. وبدأتُ الرقص.

***

تسارعتْ خطواتي للحاق بها، انتظرتها طويلًا وما أن لمحتها حتى هُرعت إليها، صُدمت حين اصطدمت بي بانتظارها عند مدخل عمارتها.. تجاهلتني وواصلت طريقها، أمسكت يدها لأستوقفها:

- شيراز.. ممكن تسمعيني.

استدارت غاضبة.. قررت أن تقسو:

- أنا مش عايزه أسمع منك حاجة.. ولو سمحت الكلام بيني وبينك يبقى رسمي.

***

انحنيت وفككت ال hand brake، صفقت الباب رزعًا لأغلقه.. جريت لمؤخرة السيارة، شهقت بقوة وزفرتُ قوتي دفعًا للسيارة نحو الهاوية، هه هه هه .. اللهاث.. الخلاص.. الجريمة.. تبقت أمتار قليلة.

كنت أدفع سيارتي نحو الهاوية.. وهي فارغة لا يوجد بها أحد!

***

تتقابل كفوفنا على سطح المرآة، سَلَخَتْ الومضات عن دماغي أحجيته مُظهرة حافة جنون مترسخة كيقين، تصلبت قسماتنا على نظرات تقتل، كان يحفرني بمقلتيه الناقمة، وكنت أحيله هباءً بِغِلّ ذهولي، تصادمتْ إرادتيْنا.. هو أو أنا، صرختُ:

- أنت إيه.. شيطان.. عايز مني إيه؟

- أنت اللي عايز مني إيه.. أنت ما لكش وجود، مجرد خيال تافه.. مرض ولازم أخلص منك.. أنا الأصل.

- أنت مجنون.

- أنت الجنان نفسه، عايز تاخد مكاني وتسحب مني كياني كله.. مش هاسمح لك أبدًا.

ألهبت حنجرتي صراخًا وأنا أخبط سطح المرآة حتى كاد ينكسر أنا الأصل.

بهدوء بارد وقاسٍ رد: أنا الأصل..

أردف ساخرًا.. شامتًا.. واثقًا:

- أنا واحد.. أنت واحد.. وإحنا الاتنين مش اتنين، مين فينا الواحد!

***

ثم توقف ذهني مُرغَمًا عند مشهد واحد.. ملأ ذاكرتي ومخيلتي، أحاط بي واستولى على حواسي، زهريّ النرد.. الهَبْ يَكّ.

***

تنفستُ بعمق مغمضًا عينيّ للحظات، تراجعتُ خطوات، ببطء شديد، رفعتُ يمناي حتى شوَّهتْ رؤيتي له أمام عينيّ، أراه من بين أصابعي يبتسم بثقة، تخلى عن إسناد راحتيه على السطح العاكس وتراجع خطوات بدوره، اتسعت عيناي ذعرًا، أدرك ما سيفعله.. ببطء رفع يسراه، ببطء واثق، قوة كاسحة تجتاح جسدي، ترغمني على رفع يمناي محاكيًا لحركته أمامي، انعاكسًا له، كلا.. لن يكون هذا.. لن يكون، لكني فقدت السيطرة على

أعضائي حرفيًّا، بِتُّ انعكاسًا لكل ما يفعله إلا ملامح وجهي.. ظلت مرتاعة.. ابتسامته ظافرة.. ساحقة.. تلسع روحي بتوهجها، إنني أتلاشى أمامه، حاولتُ الصراخ.. الفرار.. ال....

إنني أتلاشى..

أتلا...

أ...

(٣٠)

أمام مرآة مكتب الدكتور حسن كنت أقف متقطع الأنفاس مذهولًا، لم تواتني القدرة على تحريك لساني، فقط ظللت أمسح على سطحها العاكس لأتأكد من أن كل هذا كان حقيقيًّا، وأن انعكاسي طبيعيًّا لا تشوبه شائبة، جاء صوت الدكتور حسن مخترقًا لتبلد إدراكي:

- دلوقت أقدر أقول لك إننا على أول الطريق الصح للعلاج.

- يعني فيه أمل يا دكتور؟!

استدرت ملسوعًا.. كان هذا صوتها، شيراز، جالسة أمام مكتبه ترمقني بقلق:

- طبعًا فيه يا مدام شيراز.

مدام! ذُهلتُ..

ناداني الدكتور حسن: اتفضل اقعد يا أستاذ حازم.

كالمنوم اتخذت مقعدي أمام مكتبه مواجهًا لشيراز، تبكي وترمقني بحنان، تسأله:

- ضروري يدخل المصحة؟

كنت أحاول أن أفهم، والدكتور حسن يثرثر:

- لازم يكون تحت الملاحظة، للأسف فيه خوف إن الحالة تتطور وما نقدرش نعمل حاجة.

- إيه التشخيص بالظبط يا دكتور؟

تراجع الدكتور حسن متنهدًا وأجاب:

- اضطراب الهوية الانشقاقي، "Dissociative Identity Disorder"، مرض نفسي بحت ما لوش علاقة بالأمراض العقلية، المريض بيبقى له شخصيتين مسيطرين عليه وعلى تصرفاته وفي الغالب بيكونوا عكس بعض، وجود المرض مرتبط بصدمات نفسية عنيفة حصلت في سن صغير، وكتير جدًّا من الحالات دي بيتم تشخصيها غلط على إنها قلق ما بعد حدوث صدمات PTSD، حازم اختلق شخصية تانية جواه، ما لهاش وجود، شخصية حاولت تفرض كل سلبياتها عليه، ضعف.. خنوع.. انغلاق، في نفس الوقت بيكون له تقلبات مزاجية تؤدي لتصرفات عنيفة جدًّا وعدوانية خطيرة، بالتدريج بدأت الشخصية التانية تطالب بفرض سيطرتها على وجوده، صنعت لنفسها ذكريات وماضي مأخوذ كله من

ماضي حازم الأصلي، وممكن جدًّا تدفعه للتفكير جديًّا في الانتحار.. عشان كده لازم يفضل تحت الملاحظة، جلسات العلاج النفسي هتبدأ فورًا، وممكن نستخدم عقاقير معينة، SSRI أو MAOI.[٥]

أخيرًا نطقتُ.. جاء صوتي مرتعشًا:

- أنا ما بقتش عارف الحقيقة فين!

أمسكت شيراز بيدي مواسية، قال الدكتور حسن مبتسمًا:

- الحقيقة إن ما فيش حد اسمه رامي.. اللي شغال في البنك وبيركب عربيتك وعايش في شقتك ومتجوز مدام شيراز هو أنت يا أستاذ حازم.

- أنا؟

تشابكت أصابعها مع أصابعي تغمرني بحبها، نظرتْ في عيني، دمعتْ عيناها وقالت:

- أيوه أنت يا حازم.. أنت.

***

---

٥ - مضادات للصرع والإكتئاب.

كنت أحاول أن أفهم، والدكتور حسن يثرثر:

- لازم يكون تحت الملاحظة، للأسف فيه خوف إن الحالة تتطور وما نقدرش نعمل حاجة.

- إيه التشخيص بالظبط يا دكتور؟

تراجع الدكتور حسن متنهدًا وأجاب:

- اضطراب الهوية الانشقاقي، "Dissociative Identity Disorder"، مرض نفسي بحت ما لوش علاقة بالأمراض العقلية، المريض بيبقى له شخصيتين مسيطرين عليه وعلى تصرفاته وفي الغالب بيكونوا عكس بعض، وجود المرض مرتبط بصدمات نفسية عنيفة حصلت في سن صغير، وكتير جدًّا من الحالات دي بيتم تشخيصها غلط على إنها قلق ما بعد حدوث صدمات PTSD، حازم اختلق شخصية تانية جواه، ما لهاش وجود، شخصية حاولت تفرض كل سلبياتها عليه، ضعف.. خنوع.. انغلاق، في نفس الوقت بيكون له تقلبات مزاجية تؤدي لتصرفات عنيفة جدًّا وعدوانية خطيرة، بالتدريج بدأت الشخصية التانية تطالب بفرض سيطرتها على وجوده، صنعت لنفسها ذكريات وماضي مأخوذ كله من

ماضي حازم الأصلي، وممكن جدًّا تدفعه للتفكير جديًّا في الانتحار.. عشان كده لازم يفضل تحت الملاحظة، جلسات العلاج النفسي هتبدأ فورًا، وممكن نستخدم عقاقير معينة، SSRI أو MAOI.[٥]

أخيرًا نطقتُ.. جاء صوتي مرتعشًا:

- أنا ما بقتش عارف الحقيقة فين!

أمسكت شيراز بيدي مواسية، قال الدكتور حسن مبتسمًا:

- الحقيقة إن ما فيش حد اسمه رامي.. اللي شغال في البنك وبيركب عربيتك وعايش في شقتك ومتجوز مدام شيراز هو أنت يا أستاذ حازم.

- أنا؟

تشابكت أصابعها مع أصابعي تغمرني بحبها، نظرتْ في عيني، دمعتْ عيناها وقالت:

- أيوه أنت يا حازم.. أنت.

***

٥ - مضادات للصرع والاكتئاب.

وتوتة تونة خلصت الحدوتة.

همست بها مها في أذن سلمى التي استسلمت نومًا في أحضانها، يتأملهما ياسين واقفًا عند مدخل حجرة ابنته الصغيرة مبتسمًا:

- بتعملي إيه كلِ ده؟

- هششش.. أنا ما صدقت أنيِّم البنوتة.

زجرته بها همسًا، نزلت بحرص شديد من الفراش، مشت على أطراف أصابعها خارجة من الغرفة وأغلقت الباب برفق، استدارت فاحتضنها ياسين ممتنًّا.. وقبَّل يدها، همس لها:

- على فكرة مامتك نامت قدام التليفزيون.

- طيب هاصحيها تدخل أوضتها.

همت بالذهاب فجذبها برفق:

- تِصحِّي مين بس.. خليها نايمة، وحشتيني.

كادت ضحكتها العالية أن تفلت فكتمتها بصعوبة وهو يحملها حملًا إلى غرفة نومها.

***

صباحًا تلقيتُ زيارة جماعية في المصحّة، كلهم جاءوا، ياسين ومها.. شيراز زوجتي ومعها حماي بابا مصطفى.. حتى سلمى الصغيرة حملت باقة رائعة من الورود وأهدتها إليَّ فقبّلتها ضاحكًا.. وجاءت داليا أيضًا.. كانت متشحة بالسواد، حاولوا أن يجعلوا الجلسة مرحة ولطيفة قدر الإمكان، سألتهم عن علي فوجموا جميعًا وأخفت داليا دموعها عني.. بعد إلحاح نهش خلاله القلق روحي أخبروني أنه استُشهد في الموجة الثانية للثورة..

رحمك الله يا علي.. رحمك الله يا من عشت لها ومُت متمرغًا في ترابها.. رحمك الله يا أعز الأصدقاء، إنني.. أجهش بالبكاء، كان علي حاضرًا في دموعنا جميعًا، لم يَغِبْ عنا.. أبدًا، وانفطر قلبي.. احتضنتني شيراز بحنانها ولثمت كل جزء في وجهي:

- حبيبي كده مش كويس عشانك.. عشان خاطري، علي خلاص في الجنة.

- مع ماما.

صاحت بها سلمى فانتبهنا جميعًا إلى انفعالنا أمامها، أسكنتها مها أحضانها وقبّلت ما بين عينيها:

- طبعًا يا حبيبتي مع ماما.. ماما أحلى سِتّ في الدنيا دي كلها.

حاولنا أن نعود لصفاء الجلسة، وأن نكتم مشاعرنا فلم نستطع، استأذنت منهم أن أعود لغرفتي ولثمت يد شيراز واحتضنتها، خرجوا كلهم بأعين اغرورقت بالدموع.. بابا مصطفى.. شيراز.. مها.. ياسين.. سلمى.. داليا، وصعدت أنا إلى غرفتي يملأ كياني وجه علي.

انتصف الليل ولم أستطع النوم، لم يكن وجه علي ليفارقني أبدًا، وضعتُ مائة تصور للطريقة التي مات بها، تذكرت كل أحاديثنا، وقوفه بجانبي وتخفيفه عني وسعيه من أجلي، اختنقت وشعرت أن التنفس صار عسيرًا على رئتاي، خرجت إلى الشرفة، تأملت ظلام الحديقة المحيطة بالمصحة تكسره أضواء أعمدة الإضاءة الأنيقة المحاطة بالهاموش، ترددت أصوات الحشرات الليلة المبهمة، ظللت هكذا لساعة أو لأكثر، تدفقت أفكاري بدءًا من علي إلى كل ما مررت به، الغزو.. موت أبي.. حبي لشيراز.. منافسة خصم كياسين.. فوزي بها.. مشاكلي النفسية.. كل شيء، في النهاية شعرت بالإرهاق يسري في جسدي، أطلقت تنهيدة حارة.. أغلقت شيش الشرفة واستدرت عائدًا للفراش، غدًا ستبدأ أولى جلسات العلاج النفسي تحت إشراف الدكتور حسن الجمّال، كنت متوترًا و..

قفزت في الهواء مترًا، فلتت مني صرخة رعب، كان رامي واقفًا أمامي وقد صوب المسدس تجاه رأسي، المقت كان يشكّل ملامحه، رأى فزعي فابتسم بسخرية شامتة، تحجرتُ ثابتًا لا أستطيع الحراك.. اقترب حتى ألصق فوهة المسدس بجبهتي، همس: المَرَّة دي ما نسيتش زرار الأمان..

ودوت الطلقة تشق سكون الليل.

راجح

٢٣ سبتمبر ٢٠١٣

شكر خاص

محمد عارف.. أحلام أحمد.. أ. ماهر جلال.. عمرو ماهر.. محمد عبد الغفار.. د. محمد شريف سالم.. عمر طاهر.. طارق فوزي.. محمد سامي.

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

هَبْ بَكّ

11

تصميم الغلاف طارق فوزي

ISBN 978-977-399-285-9
6223004052026